المنقذ من الضلال

والموصل إلى ذي العزّة والجلال

تأليف

حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

حقّقه وقدّم له

الدكتور جميل صليبا الدكتور كامل عياد

دار الأندلس

للطباعة والنشر والتوزيع

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

الغزالي

حياته ـ فلسفته ـ المنقذ من الضلال

توطئة عامة

ظل الكثيرون من المستشرقين مدة طويلة من الزمان ينكرون على الفلسفة الإسلامية استقلالها في البحث ، وانتهاجها طريقة خاصة في معالجة المسائل الفلسفية ، حتى قال « رينان » : « ان الفلسفة الإسلامية ليست سوى فلسفة اليونان القديمة مكتوبة بحروف عربية »[١] .

ولكن هذا الحكم قد تغير في الأيام الأخيرة ، واخذ المستشرقون الباحثون في حضارة الإسلام يعترفون للفلاسفة المسلمين بأن لهم طابعاً خاصاً مستقلاً ، وانهم استطاعوا التقدم في الفكر البشري خطوات إلى الأمام في حل معضلات العالم .

---

(١) راجع :

E. Renan : Histoire générale et sytème comparé des langues Sémitiques, Paris **1855** p. **10**.

ان أهم موضوع ظل الفلاسفة الإسلاميون يحومون حوله في جميع الادوار ، هو محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة ، ولعل انصراف المفكرين إلى هذا البحث كان من اكبر العوامل في توجيه الفلسفة الإسلامية إلى ناحية معينة ، حتى اكتسبت صبغة خاصة تميزها من غيرها ، وتجعلها مستقلة في كثير من المسائل عن فلسفة اليونان القديمة ، التي لا ينكر تأثيرها العظيم في المسلمين ، وكذلك عن فلسفة الهند التي اقتبس المسلمون منها شيئاً طفيفاً .

ولما قام الفلاسفة الإسلاميون يحاولون تقريب تعاليم الدين من فلسفة أرسطو ، التي اعتبروها في المقام الأعلى من الحقيقة ، وأخذوا يسعَون لا خضاع العقائد الدينية لمباديء هذه الفلسفة ، كان من الطبيعي أن يثير ذلك معارضة شديدة لدى المتكلمين المسلمين ، الذين هبوا يدافعون عن العقائد الإسلامية بحجج الفلاسفة أنفسهم ، ونجحوا في التوفيق بين كثير من المباديء الفلسفية والعقائد الدينية أكثر من نجاح علماء المسيحية ، الذين حاولوا ذلك أيضاً بعد انتقال آراء أرسطو وشروحه الاسلامية إلى أوروبا . ولا شك في أن السبب في تفاوت هذا النجاح يرجع قبل كل شيء إلى بساطة أسس الدين الإسلامي ، بالنسبة إلى التعاليم المسيحية المركبة . وترجع أولى محاولات التوفيق بين الدين والعقل في العالم الإسلامي إلى المعتزلة ، الذين ساقهم البحث في

العقائد الدينية إلى معالجة بعض المسائل الفلسفية ، فرغبوا لذلك في الاطلاع على مؤلفات الفلاسفة اليونانيين . وهكذا كان مذهب المعتزلة من أهم العوامل في اندفاع المسلمين ، إلى ترجمة كتب أرسطو وغيره من القدمـــاء إلى اللغة العربية .

وقــد انتشرت مباديء الفلسفة اليونانية بسرعة بين المسلمين ، وقام « **اخوان الصفا** » يحاولون في رسائلهم نشر هذه المبــادىء ، ويستندون اليها في نقد الاديان والانظمة الإجتماعية السائدة .

فأصبح من الصعب بعد ذلك على علماء الكلام الدفاع عن العقائد الإسلامية دون الاستناد إلى الحقائق والشواهد العلمية . ولا شك في أن انتساب « الإمــام الأشعري إلى المعتزلة ، واشتغاله بالمسائل الفلسفية قبل قيامه لدعم عقيدة أهل السنة ، كان له تأثير كبير في إدخال كثير من النظريات العلمية في علم الكلام ، مثل « نظرية الجوهر الفرد » ، التي أخذهــا المتكلمون عن فلسفة اليونان الطبيعية ، ولكنهم توسعوا فيها واستخدموها لأغراضهم الدينية . وكان طبيعياً أن يصيب النظريات العلمية شيء من التبديل ، حتى تصلح لخدمة مقاصــد المتكلمين . وهكذا انتهى الأمر إلى حالة شاذة نرى فيها الفلاسفة يحاولون اخضاع العقائــد الدينية

شاباً ، يبدي عدم اطمئنان الى ادلة المتفقهين الملفقة . وقد سافر إلى « نيسابور » للتبحر في علم الكلام على أحد كبار الصوفيين ، وهو « امام الحرمين » ، وهناك درس المذاهب واختلافها ، وتعلم الجدل والمنطق ، وقرأ الفلسفة ، وابتدأ منذ ذلك الوقت بالكتابة والتأليف . وربما كانت نشأة شكوكه في العلم هناك أيضاً .

وبعد موت « إمـام الحرمين » (سنة ١٠٨٥) تعرف الغزالي بوزير السلجوقيين « نظام الملك » ، الذي أسس في بغداد المدرسة النظامية ، وهي تعد أول جامعة للعلوم بالمعنى الحديث ، فعين الغزالي استاذاً فيها سنة (٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م) . ونال هناك شهرة واسعة ، « لفصاحة لسانه ، ونكته الدقيقة ، واشاراته اللطيفة » .

وفي بغداد انصرف الغزالي الى دراسة الفلسفة دراسة عميقة ، فطالع كتب الفارابي ، وابن سينا ، وألف على أثر ذلك كتابه « **مقاصد الفلاسفة** » ، الذي يدل على اطلاع واسع ، ومعرفة دقيقة بالفلسفة . وقد قال « الإمام الغزالي » لتسويغ عمله هذا : انه اراد الابتداء بشرح آراء الفلاسفة ، قبل الاقدام على نقدها ، وابطالها . ولئن امتاز كتاب « مقاصد الفلاسفة » ببحثه العلمي والتزامه الحياد التام ، لقد أشارت جميع الدلائل الى ان الغزالي لم يؤلف هذا الكتاب عن رغبة مجردة في العلم ، بل سعياً لطمأنة شكوكه الفكرية وتهدئة

اضطرابه الباطني . والدليل على هذا أيضاً انه ألف بعد ذلك كتابه المشهور « **تهافت الفلاسفة** » لابداء شكوكه في قيمة العلم ، وبراهينه المنطقية .

وقد بلغت شكوك الغزالي درجة جعلته يعتزل التدريس ، ويترك الاهل ، والولد ، والمال . ويخرج من بغداد في سنة (١٠٩٥) بعد اتمام **تهافت الفلاسفة** ، أو بعد ذلك بقليل . ولم يستقر رأيه على رفض مـــا ناله من جاه ، وتقدم ، وشهرة ، الا بعد تردد طويـل ومجاهدات نفسية عنيفة . ان مثله الاعلى كان أسمى من هذه الدنيا ، وقد عرف انه يستطيع مكافحة رذائلها ، وابطال علومها عن غير طريق العلم ، الا أنه تيقن أنه يجب عليه سلوك طريقة أُخرى ، ترتفع به فوق هذا العلم ، وينفذ بها إلى أعماق الحقيقة .

وقد أُصيب في هذه المدة بمرض شديـد قطع عنه كل أمل في الحياة ، وانكشفت له أثناء ذلك مهمته الحقيقية ، فاخذ في تهذيب نفسه بالرياضة ، والتمارين الصوفيـة ، حتى يستطيع التأهب للمستقبل ، والقيام بمهمـة الاصلاح الديني والإجتماعي والسياسي في العالم الإسلامي . وكم كان الإسلام في حاجة قصوى إلى قيام رجـل كالغزالي ، يهيء نفسه للدفاع عن العقيدة الدينية ، في الوقت الذي كان فيه الفرسان الصليبيون في أوربا يتأهبون للهجوم على بلاد المسلمين . وكان الغزالي يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه يستطيع إصلاح غيره بعد

إصلاح نفسه ، وأنه يقدر أن يكون من المجددين للدين ، الذين يقول الحديث فيهم : « إن الله يرسلهم على رأس كل مئة[١] » .

خرج الغزالي من بغداد قاصداً الحج إلى بيت الله الحرام ، فظل مدة عشر سنوات تائهاً ، يتنقل في زي الفقراء ، من دمشق إلى القدس ثم إلى مصر ثم إلى الاسكندرية ، وكان يقضي كل أوقاته في العبادة معتكفاً ، زاهداً ، يجاهد نفسه ، ويقهرها ، يجول في البلدان ويزور المساجـد ، ويأوي إلى القفار ، وينزوي في المغارات ، ويتعرض لأنواع المشاق والمحن..

ثم انتهى الغزالي من هذه الرحلة ، بعد أن عزم على الدعوة إلى الإصلاح بطريق العمل ، وقام يؤلف كتابه « **احياء علوم الدين** » ؛ ثم رجع إلى « نيسابور » ، فانقطع إلى الدرس ، والوعظ والعبادة ، ومات في موطنه طوس (سنة ٥٠٥هـ ــ ١١١١ م) .

وتدل ترجمة الغزالي على ان هناك صلة وثيقة بين حياته وتطوره الفكري ، فكما دفعته اضطراباته الباطنية وشكوكه الفكرية ، إلى تغيير مجرى معيشته ، كذلك أثرت رحلته ، واعتكافه ، ورياضته ، في توجيه افكاره ، وتحديد طريقته ، وشوقه إلى الاصلاح العلمي في الدين ..

---

(١) المنقذ : راجع باب سبب نشر العلم الصفحة الثانية .

ويظهر أن الغزالي لم يترك الكتابة والتأليف ، حتى في فترة السنوات العشر ، التي قضاها في التنقل والعبادة .. وقد كتب في تلك المدة قسماً كبيراً من « إحياء علوم الدين » ، وكثيراً من كتبه الدينية ، وبلغت مؤلفاته عدداً ضخماً ، وتدور مباحثها كلها حول الفكرة الدينية ، التي شغلت حياته . وهذا ما يجعل لها ميزة نادرة ، وهي وحدة الموضوع ، ووضوح الفكرة الاساسية ، وقوة التعبير في الدفاع عن نظرياته . وفي الحقيقة لقد كان للغزالي أسلوب تتدفق منه الحياة ، بعيد عن الصناعة اللفظية ، غاية في الصراحة والوضوح . يشعر القارىء ، في كل جملة من كلامه ، بأن هناك قلباً يخفق ، وفكراً يجول ، وإرادة تملي . وقد استلفتت أنظار الغزالي إلى أغلاطه اللغوية ، وطلب منه العناية بالفاظه وتراكيبه ، فأجاب أن قصده انما هو « المعاني وتحقيقها دون الالفاظ ، وتلفيقها » . ونحن نحمد الله على عدم اشتغال الغزالي بعلوم اللغة ، وعلى قلة اهتمامه بصناعة الالفاظ ، فإنه لو اعتنى بهذه الناحية لما امتازت كتابته بهذه القوة والسلاسة في التعبير .

ولا نريد أن نحصي هنا جميع مؤلفات الغزالي ، بل نكتفي بذكر المهم منها ، أي بما له علاقة بالفلسفة ، فنبدأ بكتاب « **المنقذ من الضلال** » الذي ألفه في أواخر أيامه ، والذى لا تجد في الآداب العالمية إلا قليلاً من أمثاله من

ناحيـة الموضوع . فهو يشرح تطور الغزالي في التفكير ، والسعي وراء الحقيقة ، لا بل هو يترجم عن حياته الفكرية، ويشرح شكوكه ، ومباحثه في مختلف المذاهب ، قبـــل الوصول إلى رأي يطمئن اليه .

ثم كتاب « **مقاصد الفلاسفة** » ، و « **تهافت الفلاسفة** » ، و « **معيار النظر** » في المنطق ، ثم « **ميزان العمل** » في الأخلاق . وأهم مؤلفاته وأكبرها كتاب « **احياء علوم الدين** ». الذي شرح فيه طرق النجاة للمسلمين ، ببيان حقيقة العقائد، وتفصيل المعاملات ، والعبادات .

فلسفة الغزالي

ان الأثر العظيم الذي تركه الغزالي في التفكير الإسلامي، يرجع في الدرجة الأولى الى أنه كان المفكر الأول ، والوحيد الذي لم يكتف ، مثل علماء الكلام ، باقتباس بعض مسائل الفلاسفة ولا محاولة نقض بعض آرائهم ، بل قـام يسعى لتهديم كل البناء الذي أنشأه الفلاسفة الاسلاميون على أساس الفلسفة اليونانية ، فشرح لهذه الغاية جميع نظريـاتهم من الوجهة العامـــة ، وحاول إظهار ضعف براهينها وفساد نتائجها ، مستنداً في كل ذلك الى نظرية خاصة له في المعرفة ، تدل على دقة المشاهدة ، وعمق النظر ، وقوة التفكير .

فقيمة الغزالي الفلسفية تظهر في الناحيــة السلبية قبل غيرهــا ، أي في قوة نقده للنظريات الفلسفيــة . وهو في ذلك كثير الشبه بالفيلسوف الانكليزي « دافيــد هيوم » (David Hume) .

على أن عمــل الغزالي لم يقف عند النقد والتهديم ، كما هو الحال عند معظم المشككين ، بل تعداهما إلى تشييد صرح ديني وأخلاقي شامخ ، لا تُنكر مكانته في حضارة الاسلام الفكرية ، رغم أنــه كان قائماً على اسُس قديمة ، ورغم أن علاقته المباشرة بالفلسفة كانت محدودة جداً .

وقد نجح الغزالي بصورة خاصة في معالجة مسألة الخلاف بين الفلسفـــة والدين ، وهي التي شغلت الأفكار عصوراً طويلة ، فعرف كيف يحدد البحث في الموضوع ، واستطاع أن يتوصل الى حل ، لا نزال حتى اليوم نعترف له فيـــه بالابداع ، والطرافة ، وقوة الحجة ، ونشعر بكثير من الاعجاب به ، بل والاطمئنان اليه .

ظلت أفكار الغزالي في بادىء الأمر تتردد مدة طويلة بين الدين والفلسفة ، رغم أن الناحية الدينية كانت في الباطن أقوى عنده من الناحية العلمية – الفلسفية . ولم تتجاذبه الشكوك ، ولا يطول به البحث والتفكير ، الا لانّ فكره الثاقب ، وشعوره الحي ، وعاطفته القوية ، لم تطمئن إلى مذاهب المتكلمين ، وأدلتهم المصطنعة في اثبات حقيقة الدين .

ومع أن شكوك الغزالي لم تستمر الا فترة محدودة توصل بعدها إلى معرفة اليقين ، فإن هذه الشكوك تستحق كل الاهتمام من الوجهة الفلسفية ، لأنها تدل على نظرة عميقة في نظام الكون وتطوره ، ولأنها تتعلق بمسائل اساسية في الفلسفة ، لم ينتبه لها القدماء ...

فهو قد بحث في نظرية المعرفة ، ومعيار اليقين ، وتوصل بعد الشك الى بيـان حقيقة العلم ، بطريقة الحدس الباطني وبأسلوب يذكرنا بأساطين الفلسفة الحديثة .

يفضل الغزالي على المتكلمين والصوفية أو الفلاسفة ، الذين اقتبس عنهم جميعاً ، بانـــه سعى لإعطاء كل شيء حقه . والدليل على ذلك انه لم يحاول ، مثل المتكلمين ، اخضاع العقل ومدركاته لعقائد الدين . ولم يعمل كالفلاسفة ، على حصر الإيمان الديني في قوانين العقل واحكامه ، ولم ينصرف كالصوفيين ، الى ناحية الكشف ، والنظر الباطني ، مهملاً الى جانب ذلك العلوم العقلية والعبادات الدينية .

لا ننكر الغزالى الحقائق العلمية ، سواء أكانت رياضية أم طبيعيه ، بل يقول ان الحساب ، والهندسة والفلك ، والطبيعيات ، علوم حقيقية لا شك في صحة براهينهـــا ، وفائدة استنتاجاتها .

ولكن العلم محدد النطاق ، فكما انه لا يجوز بنـــاء

العلوم على الاعتقاد كذلك لا يجوز حصر الدين في أحكام العقل وبراهين المنطق بل إن لكل من هاتين الناحيتين مصدراً خاصاً : العلم يستند إلى العقل ، والدين ينبجس من القلب .

وقد رأى الغزالي ، لإثبات هذا الرأي ، أن يناقش الفلاسفة مناقشة عنيفة في مدّعياتهم ، وفي محاولاتهم اخضاع الدين للعقل . فاعترض عليهم في كتابه « تهافت الفلاسفة » ، في عشرين مسألة رآها مخالفة للدين ينبغي تكفيرهم في ثلاث منها وتبديعهم في الاخرى .

والمسائل الأساسية الثلاث التي كفـّر الفلاسفة فيها هي :

١ — قِدَم العالم وأزليته .

٢ — اقتصار علم الله على الكليات دون الجزئيات .

٣ — إنكار حشر الاجساد .

إن المسألة الثالثة ليست ذات قيمة كبيرة من الوجهة الفلسفية . ولكن المسألتين الاولى والثانية قد اضطرتا الغزالي إلى مناقشة كثير من النظريات العلمية والفلسفية ...

فمن المسائل الفسلفية التي تعرّض لهـا الغزالي مسألة المكان والزمان . فهو لا يريد ان يجعل فرقاً بينهما كما يفعل

الفلاسفة : إذ يعتقدون أن العالم له نهاية ، وان المكان محدد، بينما هم يقولون إن الزمان لا مبدأ له ولا نهاية . إزاء ذلك يلاحظ الغزالي انــه لا فرق بين الزمان والمكان فيقول : « كما ان البعد المكاني تابعٌ للجسم ، فالبعد الزمــاني تابع للحركة ، فإنه امتداد الحركة ، كما ان ذاك امتداد اقطار الجسم ... فلا فرق بين البعد الزمــاني الذي تنقسم العبارة عنه عبد الإضافة إلى « قبلُ » و « بعد» وبين البعد المكاني الذي تنقسم العبارة عنه عند الاضافة إلى « فوق » و « تحت »[١].

ومعنى ذلك ان الزمان والمكان هما علاقة بين الاجسام، أو بالاحرى هما علاقة بين تصوراتنا . ولذلك وجد بعضهم أن رأي الغزالي يقرب كثيراً من نظرية « كانت » التي تقول أيضاً : إن الزمان والمكان ليسا من المعاني الكلية ، بل هما صورتان قبليتان سابقتان للتجربــة نستعين بهما على إدراك العالم الخارجي .

على ان أهم مسألة فلسفية تعرض لها الغزالي هي السببية . فهو يقول ، « إن الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً ، وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا ؛ بل كل شيئين ليس هذا ذاك ، ولا ذاك هذا ، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمن لنفي الآخر ، فليس على ضرورة وجود احدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم احدهما

(١) تهافت الفلاسفة ص ٦٥ .

عدم الآخر ؛ مثل : الري ، والشرب ، والشبع ، والاكل ، والشفاء ، وشرب الدواء ... وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب ، والنجوم ، والصناعات ، والحرف. وان اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوي ، لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل للفرق ... »[١] .

ثم يزيد ذلك شرحاً فيقول : « وليس لهم من دليل إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ؛ والمشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به ، وانه لا علة سواه »[٢] .

وخلاصة رأي الغزالي في ذلك : اننا نشاهد تعاقب حادثتين فنسمي الاولى منهما سبباً والثانية مسبباً . على أن مجرد اعتيادنا مشاهدة هذا التعاقب لا يسمح لنا بأن نجعل الحادثة الاولى علة لوجود الثانية — كما يقول قانون السببية . ولا يمكن ان نستدل من تعاقب شيئين بانتظام في مشاهدتنا حتى الآن على ان ذلك يجب ان يكون دائماً لا يُتصورَ تغيره أبداً .

إن هذا معناه إنكار السببية في حوادث الطبيعة . وقد أجاب ابن رشد عن ذلك قائلاً : « إن مَن رَفَعَ الاسباب

(١) تهافت الفلاسفة ص ٥٦ .
(٢) تهافت ص ٦٦ .

فقد رفع العقل .. فرفع هذه الاشياء هو مبطل للعلم ورافع له »[١] .

ولإبن رشد كل الحق في هذا القول لإن جميع العـــلوم تستند إلى قانون السببية .

ليس الغزالي المفكر الوحيد الذي حاول أن ينكر الضرورة العقلية لقانون السببية ، فان « دافيد هيوم David Hume » الذي جاء في القرن الثامن عشر انتقد قانون السببية أيضاً وقال مثل الغزالي ، انه لا يوجد هناك دليل عقلي لنا على ضرورة وجود علاقة بين السبب والمسبب ، وإنما اعتيادنا أن نرى المسبب يعقب السبب بانتظام في جميع مشاهداتنا ، جعلنا ندعي أن الاول علة وجود الثاني . وهذه المشاهدة لا تكفي لاثبات وجود علاقة ضرورية بينهما كما ينص قانون السببية العام .

ولكن رغم هذا الانتقاد ظلّ « هيوم » يعتقد ضرورة التمسك بقانون السببية ، الذي لا يمكن ان تقوم العلوم بدونه ، وهو لم يعترض إلا على إرجاع هذا القـانون إلى ضرورة العقل . وقال : « ان اعتمادنا على صحة قانون السببية إنما نشأ عن غريزة وعادة طبيعية في البشر ، تجعلنا نتيقن

(١) تهافت التهافت ص ١٢٣ .

يقيناً باطنياً أن كل حوادث العالم لا يمكن ان تخالف النظام الدائمي الثابت » .

وقد فطن الغزالي نفسه إلى أنّ انكار السببية ، ينتهي بنا إلى ارتكاب محالات شنيعة حتى يجوز عندنا انقلاب الكتاب حيواناً ، وجرة الماء شجرة تفاح وغير ذلك[١] .

فأجاب على ذلك قائلا : « ان الله تعالى خلق لنا علماً بأن هذه الممكنات لم يفعلها ؛ ولم ندعّ ان هذه الأمور واجبة ، بل هي ممكنة يجوز ان تقع ، ويجوز ان لا تقع ، واستمرار العادة بها مرة بعد اخرى ترسخ في أذهاننا جريانها ، على وفق العادة الماضية ترسخاً لا تنفك عنه .. إنه لم ينبت من الشعير حنطة ولا من بذر الكمثرى تفاح .. ولكن من إستقرأ عجائب العلوم لم يستبعد من قدرة الله ما يحكى من معجزات الانبياء »[٢] .

وهنا نصل إلى العامل الذي دفع الغزالي إلى انكار الضرورة العقلية في قانون السببية . فهو انما يريد أن يترك مجالاً للمعجزات ، فلم ير بأساً في إخضاع العقل والعلم لعقيدته الدينية .

---

(١) تهافت ص ٦٨ .
(٢) تهافت ص ٦٧ — ٦٨ .

والحقيقة ، ان الدين هو الذي كان مسيطراً على تفكير الغزالي ، ولم تنشأ شكوكه في أحكام العقل إلا في سبيل الدفاع عن حقيقة الدين . وهو قد نجح في إرجاع أصل الدين إلى الكشف الباطني ، والايمان القلبي ، ولكنه لم يستطع عند تحديد نطاق كل من الدين والعقل ان يقف عند الحد اللازم . فلم يتردد في اخضاع العقل للدين حينما اضطر لإثبات معجزات الانبياء ، بينما كان الفلاسفة على العكس من ذلك ، يخضعون الدين للعقل ، اذا اعتقدوا تناقضاً بينهما . واليك رأي الفلاسفة المسلمين في المعجزات ، كما شرحه ابن رشد في الرد على الغزالي ، قال :

« .. فيكون تصديق النبي أن يأتي بالخارق ، وهو ممتنع عن الانسان، ممكن في نفسه . وليس يحتاج في ذلك ان نضع انّ الامور الممتنعة في العقل ممكنة في حق الانبياء . وإذا تأملت المعجزات التي صح وجودها ، وجدتها في هذا الجنس ؛ وأبينها في ذلك كتاب الله العزيز ، الذي لم يكن كونه خارقاً من طريق السماع ، كانقلاب العصا حية ، وانما ثبت كونه معجزاً بطريق الحس ، والاعتبار لكل انسان وجد ، ويوجد الى يوم القيامة . وبهذا فاقت هذه المعجزة سائر المعجزات ، فليكتف بهذا من لم يقنع بالسكوت عن هذه المسألة ، وليعرف ان طريق الخواص في تصديق الأنبياء طريق آخر — قد نبه عليه « أبو حامد »

في غير ما موضع ، وهو الفعل الصادر عن الصفة التي فيها سمي النبي نبياً ، الذي هو الاعلام بالغيوب ، ووضع الشرائع الموافقة للحق ، والمفيدة من الأعمال ما فيه سعادة جميع الخلق .. »[١] .

وقد حاول الغزالي ان يعلل المعجزات تعليلاً طبيعياً فقال : « وكذلك احياء الميت ، وقلب العصا ثعباناً ممكن بهذا الطريق . وهو انّ المادة قابلة لكل شيء : فالتراب ، وسائر العناصر يستحيل نباتاً ، ثم النبات يستحيل ، عند أكل الحيوان له ، دماً ثم الدم يستحيل منياً ،ثم المني ينصب في الرحم فيخلق حيواناً وهذا بحكم العادة واقع في زمن متطاول . فلم يحيل الخصم ان يكون في مقدورات الله تعالى ، أن يدير المادة في هذه الأطوار في وقت أقرب مما عهد فيه ؟ »[٢] .

ولم يقبل وجدان ابن خلدون العلمي الا أن يجيب على هذا السؤال في سياق الكلام على موضوع آخر فقال : ان الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في افعالها وترتكب الأعوص والأبعد[٣]. ثم صرح في مكان آخر : « وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، في دعوتهم الى الله بالعشائر والعصائب وهم

(١) تهافت التهافت ص ١ .

(٢) تهافت : ص ٦٨ .

(٣) ابن خلدون : منتخبات ، ص ٤٦ (مكتب النشر العربي بدمشق).

المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء ، لكنه انما اجرى الأمور على مستقر العادة »[١] .

ان السببية الوحيدة التي يعترف بها الغزالي هي التي ترجع الى ارادة حرة واختيار تام ومعرفة شاملـة ، وهي التي نستدل بها على حقيقة الاله . فان « المبدأ الاول ، أي الله ، عالم ، قادر ، مريد ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، يخلق المختلفات والمتجانسات كما يريد ، وعلى ما يريد »[٢] .

واذا تساءلنا عن الحجة التي نستند اليها في الاستدلال على وجود الاله ، واردنا البحث في كيفية صدور الفعل من الله بالإرادة ، اجابنـا الغزالي ان هـذا فضول وطمع في غير مطمع ، لأن « هذه الأمور مما لا تتسع له القوى البشرية[٣] وفي الناس من يذهب الى ان حقائق الأمور الألهية لا تنال بنظر العقل ، بل ليس في قوة البشر الاطلاع عليها »[٤] .

وانما يعتقد الغزالي ان الكشف الباطني واليقين الشخصي والحدس مما يثبت لنا وجود الله لأنّ نفس الانسان قبس من نور الله . وقد اكتفى الغزالي باقتباس هذا النوع من المعرفة الوجدانية عن الصوفية ، ولم يوافق على مذاهبهم المختلفة في

(١) ابن خلدون : المقدمة ، فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم .
(٢) تهافت ، ص ٢٢ .
(٣) تهافت ، ص ٢٢ .
(٤) تهافت ، ص ٤٤ .

الحلول والاتحاد والوصول[١] ، ولم يعترف بنظرية وحدة الوجود التي تجعل الطبيعة أيضاً جزءاً من القوة الإلهية .

وكذلك يخالف الغزالي الفلاسفة الاسلاميين في قولهم ان الله لا يعلم الاّ نفسه ، وانه لا يعلم الجزئيات المنقسمة بانقسام الزمن الى « الآن » وإلى « ما كان » و « ما يكون » ، وانه لا يمكن أن يكون خلق العالم من لا شيء ، فانهم يتصورون حوادث العالم عبارة عن تحول دائم في اعراض الجوهر وصوره ، أي المادة نفسها ، ثم انتقال من ممكن إلى ممكن آخر .

لكن الغزالي يتساءل : ألا يحدث شيء جديد في العالم ؟ ألم تكن العقول ، التي يقسمها ابن سينا إلى درجات مختلفة ، شيئاً جديداً مطلقاً ؟

حقاً ، ان الأسباب والمسببات لا نهاية لها ، ولا يستطيع الفكر الإحاطة بها .

ويجب الاعتراف ان نظام الصور والعقول الذي فصله ابن سينا لم يستطع المقاومة تجاه انتقادات الغزالي الصائبة .

قال الفلاسفة الإسلاميون : إن حقيقة الإله هي العقل

(١) المنقذ ، ص ١٤٥ .

والعلم ، أما الإرادة فإنها تنشأ عن الحـاجة ، ولذلك فهي نقص . ولكن الغزالي يرى ان وحدة الحقيقة الإلهية إنمـا تتمثل في الإرادة قبل غيرها ، وهو يقول ، معارضاً الفلاسفة إن الله يعرف العـالم ، لأن إرادته هي التي اقتضت وجود هذا العالم .

ويمكن انتقاد الغزالي بأنـه قد ضحّى بفكرة حدوث العالم ، التي يريد إثباتها وبفكرة اختيار الإنسان ، التي لا يود التنازل عنها ، في سبيل إنقاذ الإرادة الإلهية الأبدية .

* * *

تمتاز أخلاق الغزالي بعمق التحليل النفسي الذي يصف به الفضائـــل كفضيلة الصدق ، وفضيـلة الصبر ، وفضيلة الإخلاص ، وواجب المرء نحو نفسه ، وواجبه نحو اخوانه في الدين ، وحقوق الجوار ، وحقوق الوالدين ، وحقوق المرأة والأبنـــاء والإخوة ؛ وهي على الجملة تبحث في الفضائـل الجزئية ، من غير أن ترتقي إلى البحث في مبدأ الأخلاق ، وأساس الفضائل وغايتهـا . ان تحديد غاية العمل الإنساني مسألة فلسفية لم يخصصها الغزالي ببحث منفرد ، لأن البرهان على مبدأ الأخلاق يقتضي الخروج على شرائط اليقـين التي ذكرهـــا في « معيـار العـلم » . نعم ، إن الغزالي وضع للعمـل ميزانـاً « ترقى بـه عن حـــد التقليـد إلى حـد

الوضوح »[١]. ولكنه لم يعقد الكلام على أساس هذا الميزان بحثاً خاصاً ، بل اقتصر على وزن الفضائل به من غير أن يبين ما هو . وهو يمتاز كما قلنا بتدقيقه في وزن هذه الفضائل ، وتحليلها تحليلاً نفسياً صحيحاً . ولذلك كانت مباحثه في الأخلاق أقرب إلى المباحث النفسية منها إلى المباحث الفلسفية . ولعلنا إذا رجعنا إلى تحليل هذه الفضائل نستطيع أن نستخرج منها ، على طريقة الاستقراء ، مبـدأ الغزالي في فلسفة الأخلاق . فالغزالي يقول في كثـير من المواضع إن الفضائل خاضعة لحاكم العقل ومقيدة بالشرع ، ويقول في ميزان العمل[٢] : « وأما الشجاعة فهي فضيلة للقوة الغضبية لكونهـا قوية ، ومع قوة الحمية منقادة للعقل المتأدب بالشرع في اقدامهـا واحجامها ، وهي وسط بين رذيلتيها المطيفتين بهـا ، وهما التهور والجبن » . والعفة فضيلة القوة الشهوانية ، وهي وسط بين الشره والخمود ، فيكتنف إذن كل فضيلة رذيلتان هما الإفراط والتفريط ، إلّا العدل فلا يكتنفه إلا رذيلة الجور المجاورة له ، لأنه ليس بين الترتيب وعدم الترتيب وسط[٣]. فالفضيلة بالجملة وسط بـين الإفراط والتفريط . والكمال في الاعتدال . ومعيار الاعتدال العقل والشرع[٤] . وكل من اطلع

---

(١) ميزان العمل : ص ٣٠ .
(٢) ميزان العمل : ص ٨٥ .
(٣) ميزان العمل : ص ٩١ .
(٤) ميزان العمل : ص ٨٨ .

على تحليل آرسطو للفضيلة ، وتحديدها بالاعتـدال ، أدرك الصلة التي بين الغزالي وبينه . فالغزالي لم يقتصر في تحليل هذه الفضائل على الشرع بل اقتبس من كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس الكثير من الآراء ، ولذلك تجده يجمل معيار الاعتدال العقل والشرع معاً . فالخير ليس ما قرره العقل وحده ، بل ما قرره العقل المتأدب بالشرع ، وهذا يجعل الشرع فوق العقل ، ويذكرنا بمذهب اللاهوتيين أمثـال (دون سكوت) ، و (آبه — لار) و (جرسون) وغيرهم من الذين جعلوا الخير تابعاً لإرادة الخالق . فالخـير ليس خيراً بالذات ، وإنما هو خير بإرادة الله .

فالغزالي إذن بعيد في الأخلاق عن رأي « المعتزلة » ، ومخالف للفلاسفة ، ولعـله أن يكون أقرب إلى الصوفية المعتدلة منه إلى رأي الفلاسفة الإلهيين .

وتنقسم الفرق عنده إلى أربع وهي :

١ — فرقة المتبعين للأنبيـاء ؛ ٢ — فرقة الإلهيين الإسلاميين من الفلاسفة ؛ ٣ — فرقة الصوفية ؛ ٤ — فرقة الجماهير الحمقى الذين زعموا أن الموت عدم محض . وقرر ان الفرق الثلاث الأولى تتفق في القول ان الحماقة كل الحماقة في فتور الإيمان . ان الممعن في اتباع الشهوات ، المعرض عن النظر في المعقولات شقي في الدنيا ، وشقي في الآخرة ،

فعلى العاقل أن يسلك سبيل السعادة . وليست السعادة مقصورة على الدنيا ، وإنما هي مما وصفه الشرع ، ووعد به النفوس الصالحة في الآخرة .

فالسعادة في نظر الغزالي لا تنال الا بالعلم والعمل . ولكل منهما مقياس : فمعيار العلم يميز بين الصحيح والفاسد، وميزان العمل يفرق بين العمل المسعد والعمل المشقي ، وطريقة العمل المسعد هو في التجرد من علائق الدنيا ، والترفع عن الشهوات ، ومخالفة الهوى والتفكير في الامور الإلهية .

ان مذهب الغزالي في الأخلاق هو مذهب الصوفية المعتدلة ، لأنه لا يوافق القائلين بالاتحاد والحلول ، بل يقول إن أعلى درجات السعادة التي تحصل للانسان تقربه إلى الله تعالى تقريباً ، لا بالمكان والمسافة ، ولكن بالمعنى الحقيقي[١]. وقد أخذ من الفلاسفة مبادئهم في تحليل الفضائل ، وجعل السعادة في سلوكها ، ولكنه أضاف إلى ذلك كله ذوقاً خاصاً في التحليل ، وتنويراً لأحكام العقل بتعاليم الشرع .

ان نظرية الغزالي الدينية لا تخلو من استدلالات فلسفية : فهو قد اقتبس من الفلاسفة كثيراً من الآراء ، سواء عن قصد او غير قصد . وجعل فكرة الاله بعيدة

(١) ميزان العمل ، ص ٣٠ .

جداً عن التجسيم ، وصور البعث والحيـاة الآخرة تصويراً روحانياً محضاً .

ونستطيـع أن نلخص فلسفة الغزالي بقولنا : إنها صورة صادقة لحياته الشخصية ،وانها بقدر ما اهملت البحث في حوادث هذا العالم ، ازدادت تعمقاً ونفوذاً في ماهية الدين . ولا شك في ان الغزالي قد ارتفع على مستوى الفلاسفة الذين تمسكوا بالعقل ، واعتبروا الدين من منتوجات الخيال ، او اختراعات المشترعين فخالفهم في ادراك كنه العقيدة الدينية وشرحها وقال إنها كشف باطني وحقيقة روحيـة . ولا يمكن التردد في تفضيل محاولات الغزالي للوصول الى الحقيقة العليا على مباحث الفلاسفة الذين اقتصروا في الغالب على تكرار ما قيل قبلهم[١] .

تحليل المنقذ من الضلال

وصف الغزالي في كتاب « المنقذ من الضلال » ما قاساه من الاضطراب النفسي عند مقابلة الفرق بعضها ببعض ، وما ارتضاه أخيراً من طريقة التصوف ، ثم ما صرفه عن نشر العلم ببغداد ، ومعاودته له بنيسابور ، كل ذلك بأسلوب

---

(١) راجع دي بور ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٤٩ - ١٥٠
De Boer. Gesch. Philos. im Islàm.

مؤثر تغلب فيه اللهجة الخطابية على الحجاج العقلي ، والبرهان المنطقي . وليس في « المنقذ من الضلال » مذهب فلسفي مستقل ، ولا نظرية مجردة وإنما هو حكاية حال الغزالي نفسه ، وذكر انحلال رابطة التقليد عنه ، واستيلاء الشك عليه ، ثم استشفاؤه بأدوية التصوف .

فالمنقذ لا يحتوي إذن إلا على القليل من فلسفة الغزالي . ومن أراد الاطلاع على هـذه الفلسفة فليطلبها من كتاب « التهافت » وكتاب « المقاصد » ، وكتابي « الأحيـاء » و « ميزان العمل » .

وضـع الغزالي كتاب « المنقذ من الضلال » في أواخر أيامه بعد عزلة دامت عشر سنوات ، سلك فيهـا طريقة الصوفية : وهو يشير فيـه الى كتبه الأخرى كالتهافت ، والقسطاس المستقيم ، والمستظهري ، والمقاصد ، وفيصـل التفرقة ، وغيرهـا . وهذا يدل على أنه ألفه بعد هذه الكتب كلها ، وبعد أن أناف العمر على خمسين[1] فهو إذن من إنتاج سن النضج ، وهذا ظاهر أيضـاً في اعتدال أسلوبه ، ووضوح إشاراتـه ، وائتلاف معـانيه ، وتخير ألفاظه .

---

(١) المنقذ من الضلال ص ـ ٨٠ .

١ ـ الشك

شاهد الغزالي اضطراب الفرق ، واختلاف المذاهب ، وتباين الملل في زمانه فشبه ذلك ببحر غرق فيه الأكثرون ، فأحب أن يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض غمرته ، ويتوغل في ظلماته ، وكان ذلك بدافع طبيعي في نفسه . قال : « وقد كان التعطش الى درك حقائق الأمور دأبي وديدني ، من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي[١] » . فولد هذا الفحص عن عقائد الفرق في نفس الغزالي شكاً فلسفياً ، يمازجه شيء من الإيمان الصوفي ، وكان أول الشك عنده انحلال رابطة التقليد ، لأنه لم يجد فيها علماً يقيناً ، ولا وسيلة لتمييز الحق من الباطل ، فقال في نفسه : ان مطلوبي العلم بحقائق الأمور ، ولكن ما هي حقيقة العلم[٢] ؟ هل يمكن الوصول إلى حقائق الأمور عن طريق التقليد ؟ ان التقليد لا يفيد علماً يقينياً ، وإذا انحلت رابطته فلا مطمع في الرجوع اليه[٣] . فلا بد إذن من بيان حقيقة العلم اليقيني ما هي . ان معرفة حقيقة العلم هي من المسائل الأساسية في الفلسفة الحديثة ، لأنها أساس

(١) المنقذ من الضلال ص ـ ٨١ .
(٢) المنقذ من الضلال ، ص ٨٢ .
(٣) المنقذ ص ـ ٨٨ .

نظرية المعرفة. والفلسفة تحوم حول مسألتين اساسيتين هما: قيمة العلم، وقيمة العمل. أما مسألة قيمة العلم فهي اساس المناقشات الفلسفية التي احتدمت بين (لايبنيز) و (لوك) و (بركلي) و (هيوم) و (كانت)، وأما مسألة قيمة العمل فهي اساس الفلسفة الاخلاقية. ولا تزال هاتان المسألتان الى ايامنا هذه من أمهات المسائل التي تريد الفلسفة الحديثة أن تجد لها حلاً. وأما مسألة العمل فهي أساس الاخلاق.

نعم ان الغزالي لم يتعمق في البحث عن حقيقة العلم، بل اسرع في تحليل العلم اليقيني وتحديد شرائطه فقال: « العلم اليقيني هو العلم الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارنا لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهباً، والعصى ثعباناً، لم يورث ذلك شكاً او انكاراً »[1] وكل علم لا نتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقه به ولا أمان معه. فمقياس اليقين إذن هو الأمان، ومعنى الأمان الثقة، ومقياس الثقة انكشاف

....

(١) المنقذ ـ ص ٦٤

المعلوم انكشافاً ، لا يبقى معه ريب ولا شبهة .

وكل من قرأ تأملات « ديكارت»، ومقالته في الطريقة، ادرك قيمة معيار العلم عند الغزالي ، واشتراطه في اليقين، وضوح الأفكار ، وانكشافها للعقل انكشافاً بديهياً .

ثم إن الغزالي فتش عن علومه فوجد نفسه عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة . لأن العلم اما ان يكون بالمحسوسات ، وإما ان يكون بالعقليات ؛ فالعلم بالمحسوسات لا أمان فيه ، ولا ثقة ، لأنك « تنظر الى الكوكب ، فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على انه اكبر من الارض في المقدار »[1] وكذلك العلم بالعقليات لا يقين فيه ولا ثقة ، لأنه يمكن ان تطرأ على الانسان حالة تكون نسبتها الى العقل كنسبة اليقظة الى النوم . فكيف الثقة بالعقليات ، وبِمَ يأمن الانسان ان يكون كل ما يعتقده بعقله من جنس ما أطلعه عليه حسه ؟ فالعقل يكذب الاحساس ، والاحساس يكذب العقل ، كانت هناك مأساة محزنة تنتصر فيها العقليات على المحسوسات . قال الغزالي : « فقالت المحسوسات بِمَ تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقاً بي فجاء حاكم العقل

....

(١) المنقذ ـ ص ٨٦

فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر ، إذا تجلى كذّب العقل في حكمه ، كما تجلّى حاكم العقل فكـــذّب الحس في حكمه » (١)

إن في هذا التحليل شيئـــاً من التوهم ، لأن المحسوسات والعقليات لم تمثل في نفس الغزالي هذه الأدوار المفجعـة التي وصفها ، ومن الصعب تحديد مدة هذا الشك ، وتعيين حدوده ، وحصر عناصره في خطاب العقليـــات المحسوسات على هذه الصورة البسيطة . على ان هذا النزاع بين العقليات والمحسوسات يدل على أسلوب الغزالي ، وطريقتـــه الخطابية ، ومجادلته الكلامية . لذلك كثيراً ما نجده يحـاول الاقنـاع بالمقول والمسموع معاً ، فلا يُؤثِرُ في عقل القاريء فحسب ، بـل يستعين على ذلك بشعوره وقلبه وحدسه .

ولولا هـذا الحـدس ، لمـا خـرج الغزالي من الشك ، ولبقي ، كما يقول على مذهب السفسطة . فالأدلة العقلية لم ترجـع اليقين الى قلبه ، لأن الدليل لا يكون إلا من العلوم ، فإذا كانت العلوم غير مسلّم بها ، لم يكن الدليل منتجاً . فليس في المعرفة العقلية مـا يطـرُدُ الشك من النفس . قال

....

(١) المنقذ ــ ص ٨٦

الغزالي : « وعادت النفس الى الصحة والاعتدال . ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، ولم يك ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف . فمن ظن أن الكشف موقوف على الادلة المجردة : فقد ضيّق رحمة الله الواسعة (١) » . والمقصود بهذا النور كشفُ النفس بالحدس عن البديهيات ، والحقائق الاولى ، لان الاوليات العقلية ، لا تدرك بنظم الكلام ، وترتيب الحجج ، بل تدرك بالحدس ، وهي حاضرة في الذهن ؛ والحاضر ، كما يقوله الغزالي ، إذا ُطلبَ ُفقدَ واختفى .

ان مسألة الكشف الباطني هي من اعمق المسائل التي وردت في المنقذ من الضلال » ومن قرأ كتاب « التأملات » وطريقة «ديكارت » في الشك ، وانتقاله الى اليقين بالحدس الفكري ، ومعرفة الذات ، أدرك قيمة هذا النور الذي تكلم عليه الغزالي .

ان هذا الحدس مفتاح المعرفة ، واولاه لما رجع اليقين الى العقل . نعم ، قد يكذّب حاكم العقل حاكم الحس ، وقد يكون وراء حاكم العقل حاكم آخر يكذّب حاكم

....

(١) المنقذ : ص ٨٨

العقـل ، ولكن ما الذي يضمن لنا عدم وجود حاكم آخر فوق هذا الحاكم ؟ وهكذا يتسلسل الأمر الى مالا نهـــاية له . فمن الضروري إذن أن نثق بالضرورة العقلية ، ونسلم بالأوليات .

على أن فكرة الحدس هذه لم تكن عند الغزالي قاعدة لمذهب خاص ، بل اعتمد عليها لتحديد نطاق العقل ، وبيان عجزه عن حل جميع المعضـــلات . فالعقل لا يمكن ان يكون مصدر العقيدة الدينية ، لأن الايمان يرجع الى الكشف الباطني . وبالرغم من ان الغزالي قد اقتبس فكرة الكشف هذه من طريقة الصوفية ، فإنه امتاز على غيره بجعلها مفتاح العلوم ، ومصدر العقائد الدينية .

وقد ترفع بها عن طريقة التقليد الى طريقة العقل ، وجعل الحق قائما بنفسه لا بمن قاله . فالعاقل يجب ان ينظر في الامر ، فإذا وجده حقا قبله ، سواء « كان قائله مبطلًا او محقاً » (١) . وليس يجوز ان يهجر كل حق سبق له خاطر مبطل ، لانه اذا جاز ذلك ، لزم هجر كثـــير من الحق ، « ولزمنا ان نهجر جملة من آيات القرآن ، واخبار الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات حكماء الصوفية ، لان صاحب

....

(١) المنقذ : ص ٩٧

كتاب « اخوان الصفا » ، اوردها في كتابه » [١] فعلى العاقل أن يعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال . والغزالي لا يشترط في الحق أن يكون معقولا في نفسه ، مؤيـــدا بالبرهان فحسب ، بل يشترط أن يكون أيضاً موافقاً للكتاب والسنة ؛ ولذلك كان حدسه العقلي مقيداً بالعقيـدة الدينية . والمعرفة عنـد الغزالي تنقسم الى قسمين : معرفـة حسية ، ومعرفة صوفية ، فالعقل والتجربة هما أساس المعرفة الحسية ؛ أما المعرفة الصوفية فتستند الى الكشف الباطني .

٢ ـــ انتقاد الفرق

انحصرت الفرق عند الغزالي في اربـع : فرقة المتكلمين ، والباطنية ، والفلاسفة ، والصوفية . وقد درس الغزالي هذه الفرق واحدة واحدة وإستقصى ما عندها وانتقدها .

١ . ـــ ثم طالع علم الكلام فوجده غـير واف بمقصوده ، لأن علماء الكلام استندوا في الرد على أهل البـدعة إلى مقدمات تسلموها من خصومهم ، واستندوا في مجـادلاتهم الى النقل ، وهذا قليل النفـــع في جنب من لا يسلم سوى

....

(١) المنقذ : ص ٩٨

الضروريات شيئاً »[١] .

٢ . — ثم طالع كتب الفلاسفة حتى وقف على منتهى علومهم ، فوجدهم ينقسمون ، على كثرة فرقهم ، الى ثلاثة اقسام : الدهريين ، والطبيعيون والإلهيون . وقد رد الإلهيون على الدهريين والطبيعيين ، ورد آرسطو على غيره من الإلهيين ، ولكنه استبقى من آرائهم اشياء كثيرة اتبعه فيها الفارابي وابن سينا ، فوقعا فيما وقع فيه الاوائل من البدع .

على ان علوم الفلاسفة تنقسم الى ثلاثة أقسام : منها ما يجب التفكير به ، ومنها ما يجب التبديع به ، وقسم لا يجب انكاره اصلاً . فالرياضيات مثلا لا يمكن انكارها ، ولكن قد يتولد منها آفة اذا ظن المتعلم أن جميع علوم الفلاسفة هي في الوضوح ووثاقة البرهان كالرياضيات ، مع ان كلام الفلاسفة في الرياضيات برهاني ، وفي الالهيات تخميني .

والمنطق أيضاً لا علاقة له بالدين حتى يُجحدَ ويُنكر ، إلا" ان أهل المنطق ، عند الانتهاء الى المقاصد الدينية ، لم يمكنهم الوفاء بشروط البرهان ، بل تساهلوا فيها غاية

....

(١) المنقذ — ص ٧٢

التساهل . ذلك هو الفرق بين العلوم اليقينية . والالهيات التي كثرت فيها اغاليط الفلاسفة . وقد كفّرهم الغزالي كما ذكر في كتاب « التهافت » في ثلاثة مسائل لمخالفتهم جميع المسلمين :

١ . قولهم ان الاجساد لا تحشر ؛

٢ . وان الله يعلم الكليات دون الجزئيات ؛

٣ . وان العالم قديم أزلي .

أما الطبيعيات فقد ذكر الغزالي أنه ليس من شروط الدين انكارُها ، ولكن على الباحث في الطبيعيات أن يعلم ان « الطبيعة مسخرة الله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها » (١) وهذا يتفق مع رأي الغزالي في إنكار الاسباب ، وقوله : ان كل شيء حاصل بمشيئة الله .

٢. ـ ثم ان الغزالي انتقد طريقة التعليمية وبين غائلتها . وليس في المنقذ عن طريقة التعليمية شيء مهم ، لأن الغزالي الف كتباً كثيرة في الرد على هذه الفرقة ، ككتاب « المستظهري » ، وكتاب « القسطاس المستقيم » ، وكتاب

....

(١) المنقذ ـ ص ٩٣

« حجة الحق وغيرها (١) وقد لامه بعضهم على مبالغته في تقرير حجتهم ، وسعيه في نشر ارائهم ، فأجاب عن ذلك بقوله : ان هذا الكلام حق ، ولكن « في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر . أما اذا انتشرت فالجواب عنها واجب » . ولم يعمد الغزالي الى تقرير حجة التعليمية الا لان اصحاب التعليم اتهموا كل من يرد عليهم بالجهل ، فأراد الغزالي أن يبين لهم فهمه لحجتهم ، فقررها اولا ثم رد عليها . وهذا ما فعله ايضاً في الرد على الفلاسفة ، فقد صنف اولا كتاب « المقاصد » ، وأوضح فيه حجة الفلاسفة وعلومهم . ثم صنف بعد ذلك كتاب « التهافت » للرد عليهم . وبالرغم من ان الغزالي لا يريد ان يتكلف شبهة التعليمية ، ولا ان يضيع الوقت في الرد على اصحاب التعليم ، فانه خصص لها في كتاب « المنقذ » فصلا طويلا ، ذكر فيه بعض مسائلهم : كدعواهم الحاجة الى التعليم ، والى المعلم ، واعتراضهم على الحكم بالنص او بالاجتهاد . وقد ناقش كلًا من هاتين المسألتين ، وبين ان هذه البدعة لم تصل الى هذه الدرجة الا من سوء نصرة الصديق الجاهل ، فقد دعت شدة التعب اصدقاء الدين إلى مجاهدة التعليمية في كل مقدمات كلامهم . فجاحدوهم في الحاجة الى التعليم والمعلم ، وفي دعواهم انه لا يصلح كل معلم ، بل لا

....

(١) المنقذ ـ ص ٩٧ ـ ٩٨

بد من معلم معصوم ، وليس في الامكان إنكار ذلك . انما الخلاف ليس في الحاجة الى التعليم والمعلم ، ولا في أن يكون المعلم معصوماً ، وانما هو في معرفة المعـلم نفسه ، هل هو ميت أو حي ؟ فالتعليمية تقول : ان المعلم علّم الدعاة ، وبثهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم ، ان اختلفوا ، وأشكل عليهم مشكل . والغزالي يقول ان معلمنا هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه علّم الدعاة وبثهم في البلاد ، ولكنه أكمل لهم التعليم ، « وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم ، كما لا يضر غيبته . »(١)

أما مسألة الحكم بالنص او بالاجتهاد ، فقد أجاب عنها الغزالي بقوله : « اننا نحكم بالنص عند وجوده ، وبالاجتهاد عند عدمه » . وقد اثبت ضرورة الاجتهاد بقوله : إن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهيـة ، فلا بد من الاجتهاد في ارجاع الوقائع الخاصة الى النصوص العـامة . قال » : « فمن اشكلت عليه القبلة ، ليس له طريق إلا أن يصلي بالاجتهاد ، إذ لو سافر الى بلدة الامام لمعرفة القبلة ، لفات وقت الصلاة » . وهذا ايضاً شأن المستفتـي في كل واقعة ، لأنه إذا رجع الى بلدة الامام ، تبدلت الوقائع ، وفات الانتفاع بالفتوى . فعلى العاقل ان يجتهد ويبذل وسعه

....

(١) المنقذ ـ ص ٩٣

فيما وراء قواعد العقائد من التفصيل . امـــا قواعد العقـائد نفسها ؛ فيشتمل عليها الكتاب والسنة ؛ ولا حاجة فيها الى الاجتهاد . وقد صنف الغزالي كتاب «القسطاس المستقيم » ، ووضع ميزاناً يعرف به الحق في الكلاميات ، وظن انه يمكنه بواسطته ان يرفع الخلاف ، ويزيل التنازع . فإذا قيـل ان هذا الميزان لا يزيل الخلاف ، بل يضم إلى الشبه الموجودة شبهة جديدة ، قال الغزالي : إن المتحير ، إذا قال أنا متحير ، ولم يعين المسألة التي هو فيها متحير ، يقال له : انت كمريض ، يقول أنا مريض ، ولا يذكر عين مرضه ، ويطلب علاجه ، فيقال له : ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين »[1] وكذلك المتحير ينبغي ان يعين ما هو متحير فيه ، فإذا عين الامر الذي تحير فيه ، امكن الرجـــوع به الى « القسطاس المستقيم » وإزالة شبهته وحيرته بميزان الحق . فالميزان يغني عن الامام المعصوم ، ويشفي من الحيرة .

أما طريقة التعليمية فليس معها شيء من الشفاء للخروج من ظلمات الآراء . وقد ضيعوا عمرهم في طلب المعلم . ولم يستطيعوا ان يتعلموا منه شيئاً .

٤ . ــ ثم ان الغزالي لما فرغ من انقاد هذه الفرق اقبل

....

(١) المنقذ ــ ص ١٠٧

بهمته على طريق الصوفية ، فوجد اهلها احسن السالكين لطريق الله ، فاطمأن اليهم ، وطالع كتبهم ، وسمع أقوالهم ، حتى اطلع على غاياتهم ومقاصدهم . وكان حاصل علمهم كما قال في المنقذ : « قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى »[١] .

وأعجب الغزالي بطريقة الصوفية اعجاباً لا مزيد عليه ، حتى قال : فيهم : « لو جمع عقل العقلاء ، وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم واخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً[٢] » . ولكن طريقة الصوفية لا تتم إلا بالعلم والعمل معاً ، وما يمكن الوصول اليه بالتعلم قليل إذا نسب الى ما يمكن الوصول اليه بالذوق ، والحال ، وتبدل الصفات . والفرق عظيم بين ان تعرف حقيقة الزهد وشروطه ، وبين ان يكون حالك الزهد . فالصوفية أرباب احوال ، لا أصحاب اقوال . ولذلك لما حصّل الغزالي علوم الصوفية النظرية ، اقبل على سلوك احوالهم بالذوق ، والرياضة ، والاعراض عن الدنيا ، والهرب من علائق الحياة . ولكنه نظر

....

(١) المنقذ ــ ص ١١٢
(٢) المنقذ ــ ص ١٠٨

الى نفسه ، فوجدها منغمسة في العلائق ، ولاحظ اعمـاله ، فوجدها غير نافعة في طريق الاخرة ، فرأى نفسه على شفا جرف هاو . ثم اصابته ازمة نفسية ، تجاذبته فيها شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، حتى احس بعجزه ، فسقط اختياره ، وسهل عليه هجر اعماله . لقد وصف الغزالي هذه الأزمة النفسية بلفظ بليغ ، ومعنى جزيل ، وبيان عجيب ، فهو لا يتكلم بلسانه ، ولا يكتب بقلمه ، بـل يخاطبك بقلبـه ، وروحه ذائبة في الفاظـه ، وشعوره مصون عـن التكلف . لا تقرأ كلامه الا وتشعر بالحالة النفسية التي اصابته . فالغزالي قـد ذاق احوال الصوفية بعـد ان حصل علومهم ، ثم ارتقى الى درجة المكاشفات ، والمشاهدات ، ولكنه لم يبلغ الدرجة التي بلغها « الحلاج » من الاتحاد ، والفناء ، ولم يصف درجات السلوك ، والوصول ، كما وصفها « ابن سينا » في كتاب « الاشارات » .

إن اراء الغزالي في انتقاد الفرق تدل على قوة تحليـله ، ومُحكم قياسه ، وصادق برهانه ، وسعـة احاطته بمـذاهب زمانه ، ولكنها تدل في الوقت نفسه على الميزان الذي وزن به الحق ، وانتقد به الفلسفة ، وجعل العقل غير كاشف للغطاء عن جميع المعضلات . وهـذا الميزان هو ميزان الكشف الباطني ، الذي تنجلي به العقائد الدينية ، ويحصل به الأمان ، ويعود اليقين معه الى النفس ، والغزالي لم يتكلم على الفلسفة

الا ليبطلها ، ولم يبحث في العلوم الاخرى الا بالقياس الى الدين . فليس في « المنقذ من الضلال » شيء يدل على البحث المجرد ، والحقيقة النظرية ، لأن الحقيقة ، بصورة عامة ، تابعة عنده للعقائد الدينية ، والعقل ليس مستقلاً بالاحاطة بجميع المطالب . وهكذا كانت ثقة الغزالي بالعقل المحض قليلة ، وليس هو اول من رد على الفلاسفة ، بل قد رد قبله عليهم ، وعلى « المعتزلة » كثيرون غيره .

ولكن ليس في المناقشات التي حصلت بين المتكلمين والمعتزلة ما يضاهي قوة الغزالي في الرد على الفلاسفة ، فظهرت حجته وضعف قول المنكرين ، ولم يقم في الشرق بعده من يستطيع أن يحيي علم ما بعد الطبيعة ، كما أحيا هو نفسه علوم الدين .

وإذا كان الغزالي يطلب العلم بطريق الأوليات العقلية ويجرده من سلطان التقليد ثم يعود الى تقييده بسلطان الدين ، ويكفر الفلاسفة في علومهم ، فمردّ ذلك إلى ما قد يتولد منها من افات . فقد قال في زجر العامة عن الرياضيات : « يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم ، فانها وان لم تتعلق بامر الدين ، لكن لما كانت من مبادىء علومهم ، يسري اليه شرهم وشؤمهم ، فقل من يخوض فيها الا وينخلع

من الدين وتنحل عن رأسه لجام التقوى »[١]

وهكذا ذهب الغزالي الى ان وراء سلطان العقل طوراً آخر ، « تنفتح فيه عين اخرى ، يبصر بها الغيب ، وما سيكون في المستقبل وأمورا اخرى العقل معزول عنها »[٢]. وأصوب الطرق في نظره طريقة الصوفية ، لان جميع حركاتهم ، وسكناتهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة « وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به »[٣].

ان انتقاد الغزالي للفرق مبني على هذه الموضوعة الاساسيه ، وهي ان العقل عاجز عن الاحاطة بكنه الحقائق الالهية ، وان وراء طور العقل طور آخر أساسه الحدس الديني يدرك به الانسان ما لا يدركه العقل ، قال في معرض الكلام على الفرق : « الحق لا يعدو هذه الاصناف الاربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبيل طلب الحق ، فان شذ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق مطمع » (٤) . وفي ذلك كما ترى اشارة بطرف خفي الى تحديد نطاق العقل وتضيق حدود المعرفة .

....

(١) المنقذ ـ ص ٨٠

(٢) المنقذ ـ ص ١١١

(٣) المنقذ ـ ص ١٠٦

(٤) المنقذ ـ ص ٦٩

٣ ـ النبوة والاصلاح الديني

الانسان على الفترة الاولى يجهل ما يحيط به من الموجودات ، ثم انه يطلع عليها بواسطة الادراك ؛ وقد تنوعت الادراكات بحسب اجناس الموجودات : فقوة الحس تدرك عالم المحسوسات ؛ وقوة التمييز تدرك اموراً زائدة على الحس ، والعقل يدرك الواجب والجائز والمحال . ووراء طور العقل قوة اخرى لإدراك الغيب وما سيكون في المستقبل . فهناك اربع مراتب للادراك : ادناها مدركات الحس » وأعلاها مدركات النبوة .

والبرهان على مدركات النبوة وجود معارف عند الانسان لا يمكن أن تتم له إلا بهذا النوع من الادراك ، كالطب والنجوم ، « فإن من يبحث عنهما يعلم بالضرورة ، انهما لا يدركان إلا بالهام إلهي »[١] .

واذا نظرنا الى الانسان وجدنا معه نموذجاً من هذا الادراك ، وهو النوم . فالنائم يدرك ما سيكون من الغيب ، ويرى ويسمع ، وبصره وسمعه في حال غفلة . فكما أن العقل طور ندرك به انواعاً من المعقولات بعيدة عن الحس ، كذلك النبوة فهي من طور آخر يظهر فيه نور الغيب ولا يدركه

....

(١) المنقذ ـ ص ١١٩ ـ ١٢٢

العقل [١] فالرؤيا ، كعلم الطب والنجوم ، تدل على ان في الانسان شيئاً من خواص النبوة ، وهي تقرب هذا الادراك من العقل ، وما عدا ذلك فإنما يدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف [٢] .

والنبي لا يعرف الا باحواله ، وذلك اما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامح . وكما ان الانسان اذا عرف الطب أمكنه أن يعرف الاطباء بمشاهدة أحوالهم ، فكذلك اذا فهم معنى النبوة ، أمكنه أن يستدل بها على شخص معين انه نبي ام لا ، وذلك بمشاهدة احواله ، وتجربة ما قاله في الف او الفين والاف من الأحوال ، حتى يحصل اليقين القوي والايمان العلمي .

ولما كان الانسان قد خلق من نفس وبدن ، فان البدن له صحة بها سعادته والقلب له صحة بها سلامته . إلا ان ادوية العبارات لا يدرك تأثيرها ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء « فالأنبياء اطباء امراض القلوب » (٣) والعبارات أدوية مختلفة في النوع والمقدار ، إلا أن الخلق قد اعمت

....

(١) المنقذ ـ ص ١١١ راجع ايضا ابن خلدون صليبا وعياد .

(٢) المنقذ ـ ص ١٠٩ ـ ١١٢

(٣) المنقذ ـ ص ١١٦

الاهواء قلوبهم ، فلم يدركوا حقيقة النبوة ، بـل شاع بينهم فتور الاعتقاد ، فبحث الغزالي عن اسباب فتور الخلـق وضعف ايمانهم فوجدها اربعة : ١ ــ الفلسفة ٢ ــ التصوف ٣ ــ التعليم ٤ ــ الموسومون بالعلم فيما بين الناس . فند هذه الاسباب واحداً واحداً باسلوب يشبـه اسلوب « باسكال » في رده على الدراقطة ، وانحى باللائمة على الفلاسفة الذين يسرون غير ما يعلنون ، فيخالفون الشريعة بقلوبهم ويعظمونها بلسانهم وقد عظم خطر أعداء الدين واستفحل أمرهم ، حتى صار لا يمكن ملازمة العزلة وتركهم يخدعون الناس بأقاويلهم . ووجد الغزالي ان فضحهم أيسر عنده من شربة ماء ، فكيف يلازم العزلة « وقد عم الداء ومرض الاطباء ، وقد وعد الله باحياء دينه على رأس كل مئة ! فتحركت في نفسه عوامـل الرجوع إلى نشر العلم ، واصابته بازمة نفسية ثانية اخرجته من عزلته ، فسافر إلى نيسابور ، وانصرف غيره ، كأنه رسول بعث لاحيـاء الدين ، فعالج الباطنية بـ « للقسطاس المستقيم » ومرض الاباسة بـ « كيمياء السعادة « وعالج الذين فسد ايمانهم بالفلسفـة حتى انكروا النبوة بأن اثبت لهم إمكانهـا ووجودها .

هذا ما اشتمل عليه كتاب المنقـذ من الضلال من شك

نقد ويقين . فهو قصة حياة فكرية مضطربة ، وصورة نفس فعمة بالايمان ميالة الى الحق ، باحثة عن اليقين ، لا بل هو صة الم نفسي ونزاع عميق بين العقل والالهام ، كتبه الغزالي أسلوب سهل ، عليه طابع الصدق والامانة والبساطة والنقاء ، حتى جاء أوحد نوعه في الثقافة الاسلامية ، وقليل الشبيه في لأدب العالمي باساوبه ومنحاه ووحدة غرضه واستقامة منهجه .

آثار الغزالي

١ ـ المطبوعة

التصوف

١ ـ آداب الصوفية : طبع في مصر .

٢ ـ الادب في الدين : طبع ضمن مجموع في القاهرة ١٣٤٣ .

٣ ـ الاربعين في أصول الدين : وهو القسم الثالث من جواهر القرآن ، طبع في مكة ١٣٠٢ .

٤ ـ الاملاء عن اشكال الاحياء : رد به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الاحياء . طبع بهامش « اتحاف السادة المتقين » للزبيدي المرتضى كما طبع في فاس ١٣٠٢ .

٥ ـ احياء علوم الدين : وهو من أجل كتب المواعظ واعظمها طبع في مصر غير مرة ، وفي لكناو ١٢٨١ ، وبه حواش وتقييدات ، ومنه نسخ خطية في مكاتب فيينا وبرلين وليدن والمتحف البريطاني واوكسفورد ، وعليه شروح عديدة منها : « اتحاف السادة المتقين » طبع في فاس ١٣٠٢هـ في ـ ١ مجلدا ، وفي القاهرة ١٣١١ في عشرة مجلدات . ومنها : « منهاج القاصدين » لابن الجوزي ، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية وأخرى في مكتبة باريس . ومنها : « روح الاحياء » لابن يونس ، ومنه نسخة في مكتبة أوكسفورد .

وقد اختصره السيد جمال الدين القاسمي الدمشقي وسماه « موعظة المؤمنين من أحياء علوم الدين » طبع ثلاث مرات في القاهرة .

٦ ـ أيها الولد : كتبهلبعض أصدقائه نصحا له ، وذكر نصائح ووصايا في الزهد والترغيب والترهيب ، طبع مع ترجمة ألمانية في فيينا ١٨٣٨ و ١٨٤٢ باعتناء « هامر برغستال » كما طبع في مصر وكذلك في بيروت سنة ١٩٥١ **مع ترجمة فرنسية للدكتور صباغ وترجمة انكليزية لجورج شيرر وترجمةاسبانية لاسطفان** لانور (اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية) ومنه نسخ خطية متفرقة في مكاتب اوروبا وفي دار الكتب المصرية ٠

٧ ـ **بداية الهداية وتهذيب** النفوس بالآداب الشرعية: طبع في القاهرة عدة مرات ٠ ومنه نسخ خطية في برلين ، وغوطا ، ومونيخ ، وباريس ، ولندره ، وأوكسفورد ، والجزائر ، ولينغراد٠ وله مختصر أيضا٠ وقد شرحه الشيخ محمد نووي الجاوي بكتابه المسمى « مراقي العبودية »٠

٨ ـ جواهر القرآن ودرره: طبع في مكة وبمبي ومصر، ومنه نسخة في ليدن والمتحف البريطاني ولينغراد ودار الكتب المصرية ٠

٩ ـ الحكمة في مخلوقات الله ،طبع غير مرة في مصر٠ ومنه مخطوط في باريز رقم ٢٣١٠ ٠

١٠ ـ خلاصة التصانيف : ألفه باللغة الفارسية ٠ وترجمه محمد أمين الكردي المتوفي سنة ١٢٣٢ ، طبع في مصر ١٣٢٧ ٠

١١ ـ الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة : طبع في جنيف ١٨٧٣ م بعناية (غوتييه) وفي القاهرة غير مرة ، وفي ليبسيك ١٩٢٥ م٠

١٢ ـ الرسالة اللدُنيّة : طبعت مع رسالة « كنه ما لا بد منه للمريد » لابن عربي٠ وطبعت أيضا مع رسائل الامام حجة الاسلام الغزالي القاهرة، ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م)٠

١٣ ـ الرسالة الوعظية : طبعت ضمن مجموع فيالقاهرة ١٣٤٣ هـ ٠

١٤ ـ فاتحة العلوم : وهو **مشتمل على فصلين ، ومنه** نسخة في مكتبة برلين وأخرى في مكتبة باريس طبع في مصر ١٣٢٢ هـ٠

١٥ ـ القواعد العشر : طبع في مصر غير مرة ٠

١٦ ـ الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين : طبع بهامش « تنبيه المغتربين » للشعراني ٠

١٧ ـ المرشد الامين الى موعظة المؤمنين (من احياء علوم الدين) لخص فيه الاحياء، طبع بمصر ١٣١٤ ٠

١٨ ـ مشكاة الانوار : فيه بحث في الفلسفة اليونانية من ناحية التصوف ، طبع في مصر ضمن مجموع عام١٣٤٣، ومنه **نسخ خطية في دار الكتب** المصرية ، وسائر المكاتب الدولية في اوروبا ، ولهترجمة عبرانية ٠

١٩ ـ مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب: مختصر من المكاشفة الكبرى للغزالي ، اختصار بعض الافاضل ، طبع في مصر غير مرة ٠

٢٠ ـ منهاج العابدين الى الجنة قيل انه آخر تآليفه، طبع في مصر غير مرة ٠ وعلى هامشه كتاب « بداية الهداية »، ومنه نسخة خطية في برلين وباريس وليدن والمتحف البريطاني والجزائر ، وله تلخيص ينسب الى «بلاطونسي» من أهل القرن التاسع الهجري٠ وهذا له شرح ترجم الى التركية ٠ قال ابن عربي في محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار ص ١٥٩ ان هذا الكتاب منحول وانه لابي الحسن علي المسفر السبتي ٠ انظر رقم ٥ من الكتب المنحولة ٠

٢١ ـ ميزان العمل: مختصر في علم النفس وطلب السعادة التي لا تنال الا بالعلم والعمل، وببان شرف الفعل والعلم والتعليم ٠ طبع في ليبسيك ١٨٣٩ وفي مصر ١٣٢٨٠ كما ترجمه الدكتور حكمة هاشم الى اللغة الفرنسية بعنوان:
Critère de l'Action
باريز ١٩٤٥ ٠

٢٢ ـ معراج السالكين ، طبع في مصر في مجموعة اسمها فرائد اللآلىء من رسائل الغزالي مع منهاج العارفين وروضة الطالبين ومنه نسخة خطية في مكتبة باريز رقم ١٣٣١ ٠

العقائد

٢٣ ـ الأجوبة الغزالية في المسائل الاخروية : راجع المضنون به على غير أهله ٠

٢٤ ـ الاقتصاد في الاعتقاد: طبع في مصر غير مرة ٠

٢٥ ـ الجام العوام عن علم الكلام : طبع في مصر غير مرة ، وفي الهند ، ومنه نسخ خطية في مكاتب اوروبا ٠

٢٦ ـ الرسالة القديسة في قواعد العقائد : طبع في الاسكندرية (دون تاريخ) ٠

٢٧ ـ عقيدة اهل السنة : طبع في الاسكندرية (دون تاريخ) ومنه نسخ خطية في برلين واوكسفورد ولندره ٠

٢٨ ـ فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية : ويسمى المستظهري ، نشر منه « كولدتسهر » قسما كبيرا وقدم له وبحث فيه بحثا طويلا باللغة الالمانية ، طبع في لندن ١٩١٦ مع المتن العربي ومنه نسخة خطية ناقصة في مكتبة احمد عبيد بدمشق ٠

٢٩ ـ فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة : طبع في مصر ١٣٤٣ ضمن مجموع ٠ ومنه نسخ خطية في برلين والقاهرة ٠

٣٠ ـ القسطاس المستقيم : طبع في مصر غير مرة ، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ونسخة في برلين واخرى في الاسكوريال ٠

٣١ ـ كيمياء السعادة : طبع غير مرة في مصر ، ومنه **نسخة فارسية في مكتبة برلين،** واجزاء متفرقة في سائر المكاتب ، فضلا عن النسخة العربية ٠

المستظهري : راجع فضائح الباطنية ٠

٣٢ ـ المضنون به على غير اهله ويسمى الاجوبة الغزالية٠ طبع في مصر غير مرة وفي الهند ، انظر رقم ٥ من الكتب المنحولة ٠

٣٣ ـ المقصد الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى : طبع في مصر ١٣٣٤ هـ٠

٣٤ ـ قواعد العقائد ، مطبوع ذكره السبكي في سياق

رؤيا اوردها في طبقات الشافعية ، وهو كتاب قواعد العقائد المذكورة في الجزء الاول من الاحياء ٠

الفقه والاصول

٣٥ ـ اسرار الحج : في الفقه الشافعي ، طبع في مصر (دون تاريخ) ٠

٣٦ ـ المستصفى في علم الاصول ، طبع في القاهرة غير مرة ، ومنه نسخ خطية في دار الكتب المصرية ، وفي مكتبة غوطا ٠

٣٧ ـ الوجيز في الفروع : اخذه من البسيط والوسيط ، وزاد فيه امورا وهو كتاب جليل في المذهب الشافعي (مطبعة شركة الكتب ١٣١٨ ج ٢) ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ، وله شروح عديدة لم تطبع ٠

الفلسفة والمنطق

٣٨ ـ تهافت الفلاسفة : طبع في مصر غير مرة ، وفي بمبي (الهند) ١٣٠٤ ، رد فيه على الفلاسفة وقد ترجم الى العبرانية واللاتينية وطبع في بيروت طبعة نقدية اصدرها الاب اليسوعي بويج سنة ١٩٢٧ ٠

٣٩ ـ رسالة الطير : طبع ضمن مجموع في القاهرة ١٣٤٣ هـ ٠

٤٠ ـ محك النظر في المنطق : طبع في مصر (دون تاريخ) ٠

٤١ ـ مشكاة الانوار : طبع في مصر ضمن مجموع ١٣٤٣، انظر رقم ٢٨ ٠

٤٢ ـ معارج القدس في مدارج معرفة النفس : طبع في القاهرة ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م ، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ٦٣٠ فلسفة كتبت في سنة ١٢٠٥ ، راجع فهرس المخطوطات المصورة لجامعة الدول العربية ، رقم ٣٥٣ فلسفة ص ٢٣٥ ٠

٤٣ ـ معيار العلم في المنطق : طبع في مصر ١٣٢٩

٤٤ ـ مقاصد الفلاسفة : في المنطق والحكمة الالهية والحكمة الطبيعية ، طبع في ليدن ١٨٨٨ م مع شروح ، وفي القاهرة غير مرة ، وله ترجمة

لاتينية طبعت في البندقية ١٥٠٦ م ٠

٤٥ ـ المنقذ من الضلال : (وهو هذا الكتاب) منه نسخ خطية في مكاتب برلين وليدن وباريس والاسكوريال ودار الكتب المصرية وتكلمعنه مطولا « شمولدرز » في كتابه عن المدارس الفلسفية عند العرب المطبوع ١٨٤٢ م بالفرنسية ٠

٢ ـ المخطوطات

التصوف

٤٦ ـ جامع الحقائق بتجربة العلائق : منه نسخة خطية في مكتبة اوبسال ٠

٤٧ ـ زهد الفاتح : منه نسخة خطية في المتحف البريطاني ٠

٤٨ ـ مدخل السلوك الى منازل الملوك : بحث في حياة الصوفي ومنه نسخة في الاسكوريال ٠

٤٩ ـ معراج السالكين ، منه نسخة في مكتبة باريز ٠

٥٠ ـ نور الشمعة في بيان ظهر الجمعة : منه نسخة خطية في ليدن ٠

الفقه والاصول

٥١ ـ البسيط في الفروع على نهاية المطلب لامام الحرمين : منه نسخة خطيةفي مكتبة الاسكوريال واخرى في دار الكتب المصرية ٠

٥٢ ـ غاية الغور في مسائل الدور : منه نسخة خطية في مكتبة المتحف البريطاني ٠

٥٣ ـ المنخول في الاصول: منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية ٠

٥٤ ـ الوسيط المحيط باقطار البسيط : منه نسخ خطية في مكتبتي مونيخ واوكسفورد وفي دار الكتب المصرية ٠

الفلسفة

٥٥ ـ حقائق العلوم لاهل الفهوم : منه نسخة في مكتبة باريس ٠ وقد ذكر الدكتور حكمت هاشم في حاشيته على هذا الثبت ان هذه الرسالة هي الرسالة اللدنية المطبوعة في

القاهرة ضمن مجموع الجواهر الغوالي من رسائل الامام الغزالي .

٥٦ ــ المعارف العقلية والحكمة الالهية : منه نسخ في مكتبات باريس واوكسفورد وامبروزياتا . حققه الدكتور حكمة هاشم وهو الان في سبيل نشره .

٥٧ ــ فضائل القرآن : منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية .

٣ ــ المفقودة

أ

٥٨ ــ آداب الكسب والمعاش .

٥٩ ــ الاجوبة المسكتة عن الاسئلة المبهتة .

٦٠ ــ اخلاق الابرار والنجاة من الاشرار .

٦١ ــ ارشاد العباد .

٦٢ ــ ارواح الاشباح .

٦٣ ــ اساس القياس .

٦٤ ــ الاسئلة والاجوبة .

٦٥ ــ اسرار الانوار الالهية في الآيات المتلوة القرآنية .

٦٦ ــ اسرار اتباع السنة .

٦٧ ــ اسرار حروف الكلمات .

٦٨ ــ اسرار المعاملات .

٦٩ ــ الاشارة المعنوية الى الاسرار الحرفية .

٧٠ ــ اشراق المأخذ .

٧١ ــ الامتثال لمشيئة الله تعالى والعصيان لها .

٧٢ ــ الانتصار على الامام الزناتي .

٧٣ ــ الانتصار لما في الاجناس من الاسرار .

٧٤ ــ الانيس في الوحدة .

٧٥ ــ ايضاح التعريف في فضل العلم الشريف .

ب

٣٦ ــ بدائع الصنيع .

٧٧ ــ البدور في اخبار البعث والنشور .

٧٨ ــ بيان القولين للشافعي .

ت

٧٩ ــ التأويلات .

٨٠ ــ التجريد في التوحيد ·
٨١ ــ تحصن المآخذ ·
٨٢ ــ تحصين الادلة ·
٨٣ ــ تحفة الملوك ·
٨٤ ــ تدليس ابليس ·
٨٥ ــ تعليقة في الفروع ·
٨٦ ــ تفسير الآية التاسعة والعشرين من سورة يونس ·
٨٧ ــ تفسير القرآن ·
٨٨ ــ تقسيم الاوقات والادوار ·
٨٩ ــ تنبيه الغافلين ·
٩٠ ــ التوحيد واثبات الصفات ·

ج

٩١ ــ الجدول المرقوم بالدرج (ذكره في المنقذ) انظر ١٠٩ ·
٩٢ ــ جنة الاسماء ·
٩٣ ــ الجوابات المرقومة ·
٩٤ ــ الجواهر والدرر في التصوف ·

ح

٩٥ ــ حجة الحق (ذكره في المنقذ) ·
٩٦ ــ الحدود
٩٧ ــ الحصن والحصين ·
٩٨ ــ حصن المآخذ ·
٩٩ ــ الحقائق في الدار الفائق ·
١٠٠ ــ حقوق أخوة الاسلام ·
١٠١ ــ حقيقة الروح ·
١٠٢ ــ حقيقة القولين ·
١٠٣ ــ حل الرموز ·

خ

١٠٤ ــ الخاتمفي الطلاسم ·
١٠٥ ــ الخلاصة في الفقه ·
١٠٦ ــ خلاصة الوسائل الى علم المسائل (لخص فيه مختصر المزني وزاد عليه بعض مسائل) ·
١٠٧ ــ خواص الحروف ·
١٠٨ ــ خواص القرآن ·

د

١٠٩ ــ الدرج المرقوم بالجداول ، انظر ٩١ ·
١١٠ ــ الدر المنظوم في السر المكتوم (ويعرف بخاتم الغزالي وبوفق زحل) ·
١١١ ــ دقائق الاخبار ·

ذ

١١٢ ـ ذكر العالمين ٠

١١٣ ـ الذهب الابريز في خواص الكتاب العزيز ٠

ر

١١٤ ـ الرد الجميل على من غير الانجيل ، انظر رقم ١٧٧ ٠

١١٥ ـ الرد على من طغى ٠

١١٦ ـ رسالة آداب الصلاة ٠

١١٧ ـ رسالة الاقطاب ٠

١١٨ ـ رسالة التوحيد ٠

١١٩ ـ رسالة الجبر المتوسط ٠

١٢٠ ـ رسالة الذكر ٠

١٢١ ـ رسالة العشق ٠

١٢٢ ـ الرسالة الغزالية في اللغة ٠

١٢٣ ـ رسالة في فتوح القرآن (رسالة الفها الى ابي الفتح الدميمي) ٠

١٢٤ ـ رسالة في آفات المال وفوائده ٠

١٢٥ ـ رسالة في الاحرف ٠

١٢٦ ـ رسالة في الثبات على الصراط ٠

١٢٧ ـ رسالة في الحدود ٠

١٢٨ ـ رسالة في حقيقة الدنيا ٠

١٢٩ ـ رسالة في حماقة اهل الاباحة ، موجودة في الفارسية ، طبعها ودرسها (اوتو برتزل) سنة ١٩٣٣ ٠

١٣٠ ـ رسالة في رجوع اسماء الله تعالى الى ذات واحدة على رأي الفلاسفة والمعتزلة ٠

١٣١ ـ رسالة في الفرق بين النطق والكلام ٠

١٣٢ ـ في فضل ـــ

١٣٢ ـ رسالة في فضل القرآن وتلاوته ٠

١٣٣ ـ رسالة في قوله (ص) « افضل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقا » ٠

١٣٤ ـ رسالة في معرفة الله تعالى ٠

١٣٥ ـ رسالة فيما يجب على كل مسلم ٠

١٣٦ ـ رسالة في معنى الرياضة ٠

١٣٧ ـ رسالة في الموت ٠

١٩٩ ـ معيار النظر ٠
٢٠٠ ـ مغاليط المغرورين٠
٢٠١ ـ مفصل الخلاف ٠
٢٠٢ ـ المقاصد ٠
٢٠٣ ـ مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والامراء ٠
٢٠٤ ـ مقصد الخلاف في علم الكلام ٠
٢٠٥ ـ المكاتبات ٠
٢٠٦ ـ المكنونات ٠
٢٠٧ ـ المكنون في الاصول٠
٢٠٨ ـ المنادي والصامت٠
٢٠٩ ـ المنازل السائرة ٠

٢١٠ ـ مناهج العارفين، لعله منهاج العارفين المطبوع في فرائد اللآلىء من رسائل الغزالي مع معراج السالكين وروضة الطالبين ، القاهرة ١٣٤٤ ٠

٢١١ ـ المنتحل في علم الجدل ٠
٢١٢ ـ منشأ الرسالة في احكام الزيغ والضلالة ٠
٢١٣ ـ منهاج الرشاد ٠
٢١٤ ـ منهاج الاعلى ٠
٢١٥ ـ منهاج المتعلم ٠
٢١٦ ـ المذهج الاعلى ٠
٢١٧ ـ المواعظ في الاحاديث القدسية ٠
٢١٨ ـ مواهم الباطنية ٠

ن

٢١٩ ـ نصائح الملوك (فارسي) هو عين رسالة الغزالي الى ملكشاه في العقائد انظر رقم ١ من الكتب انظر رقم ١ من الكتب المنحولة ٠

٢٢٠ ـ نصيحة الملوك ٠
٢٢١ ـ نعمة الفقير ٠
٢٢٢ ـ نهاية الاقدام في الفقه ٠
٢٢٣ ـ النية والاخلاص ٠

و

٢٢٤ ـ الوسائل في الفروع ٠
٢٢٥ ـ الوظائف في بيان العلوم ٠

هـ

٢٢٦ ـ هشت فائدة انز جانم اصم (فارسي) ٠

ي

٢٢٧ ـ ياقوت التأويل في

تفسير التنزيل (وهو تفسير القرآن في اربعين مجلدا) ٠
٢٢٨ ـ يواقيت العلوم (فارسي) ٠

٣ . ـ المنحولة

١ ـ التبر المسبوك في حكايات وحكم ونصائح الملوك٠ طبع في القاهرة غير مرة ٠ وقد ترجمه عن الفارسية الى العربية ـ فيما يزعم الذين الذين دسوه على الغزالي ـ احد تلامذة المؤلف ويسمى ايضا « عمدة المحققين وبرهان اليقين » ٠

٢ ـ تحسين الظنون ٠

٣ ـ سر العالمين وكشف ما في الدارين ، يبحث في نظام الحكومات منسوب له ، والصواب انه لاحد الباطنية ، طبع في الهند ومصر ، ومنه نسخة خطية في دار الكتب الكتب المصرية ٠

٤ ـ السر المكتوم في اسرار النجوم ٠

٥ ـ اضنون به على غير اهله ٠ (انظر رقم ٣٢) ، ذهب السبكي ، وابن عربي وابن الصلاح والزبيدي الى ان هذا الكتاب اشتمل على القول بقدم العالم ونفى علم القديم بالجزئيات ٠ وتابعهم الدكتور علي العناني وغيره من علماء العصر على ابعاد هذا الكتاب من جريدة كتب الغزالي ٠ قال ابن عربي في

محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار ج ١ ، ص ١٥٩ : « كان هذا الشيخ المسفر (الكلام على ابي الحسن علي المسفر) جليل القدر ، حكيما عارفا غامضا في الناس ، محمود الذكر رأيته بسبتة ، له تصانيف منها منهاج العابدين الذي يعزى لابي حامد الغزالي ، وليس له ، وانما هو من مصنفات هذا الشيخ • وكذلك كتاب النفخ والتسوية الذي يعزى الى ابي حامد ايضا وتسميه الناس المضنون الصغير • » ويقول ابن رشد في مناهج الادلة ص ٧٢ ان الغزالي ذكر المضنون به في جواهر القرآن ، ولكننا لم نجد في هذا الكتاب ذكرا للمضنون به ، بل وجدنا فيه اشارة غامضة الى كتب يرى الغزالي ان لا يظهر ما فيها (راجع جواهر القرآن ص ٣٠ من طبعة مصر ١٣٢٩) ولما كان كتاب المضنون به على غير غير اهله مشتملا على مسألة في النفخ والتسوية ، وكان كتاب النفخ والتسوية معروفا باسم المضنون الصغير ، وهو للشيخ المسفر كان من المحتمل ان يكون المضنون الذي الصغير ، وهو للشيخ المسفر كان من المحتمل ان يكون المضنون الذي بين ايدينا مؤلفا من قسمين احدهما للغزالي والآخر (وهو المسألة الاولى في النفخ والتسوية) مدسوس عليه • والدليل على ذلك ان هذه المسألة قد اشتملت على القول بعدم تناهي الزمان ، اما المسائل الاخرى التي اشتمل عيلها كتاب المضنون به على غير اهله فليس فيها ما يخالف آراء الغزالي •

٦ ـ كتاب النفخ والتسوية، وهو للشيخ المسفر ابي الحسن علي السبتي (راجع ابن عربي ، محاضرة الاسرار ومسامرة الاخيار ، جزء ١ ، ص ١٥٩) •

اهم المصادر عن الغزالي

١ - حياته ومؤلفاته

١ ـ المنقذ من الضلال ٠

٢ ـ السيد المرتضى ، مقدمة كتاب « الاتحاف » ، ج ١ ص ٢ ـ ٥٣ ، والمادة نفسها الموجودة في الاتحاف موجودة في طبقات السبكي ، ج ٤ ص ١٠١ ـ ١٨٢ ، وفي المجلد الثاني من المنتخبات التي انتخبها « مبرن Mebren في :
Translation III Congress of orientalists.

٣ ـ د٠ ب٠ مكـــدونالد (D. B. Macdonald)
The Life of Al Ghazali, with special reference to his religious experiences and opinion.
انظر مجلة (J.A.O.S.) ١٨٩٩ ، المجلد العشرون ، ص ٧١ ـ ١٣٢ ٠

انظر ايضا الفصل الرابع من : نيويورك،١٩٠٣ ٠
Development of Muslim Theology

٤ ـ ر٠ غـوش (R. Gosche) :
(في مباحث المجمع العلمي في برلين) ٠
Uber Gazzalis Leben und Werke : (R. Gosche) 1859.

٥ ـ م٠ آزين ـ بالاسيوس : سقسطة ١٩٠١ ٠
Al Gazel : (M. Asin - Palacios)
Dogmatica, moral, ascética.

٦ ـ كارا دو فو Gazali (Carra de Vaux)
باريز ،١٩٠٢ .

راجع ايضا :

Traduction du Tahafot d'Al Gazali, Munchen, 1899, 1900.

٧ ـ غولدتسيهر (Goldziher)
Vorlesungen uber den Islam
المقدمة ، وخصوصا ص ١١٧ وما بعدها .

٨ ـ هـ. فريك
Ghazàlis Selbsbiographie : (H. Frick)
Ein Vergleich mit Augustins Konfessionen.
Giessen 1919.

١ ـ منزلة الغزالي في تاريخ الفلسفة

١ ـ ت. ج. دي بوير : (T. J. de Boer)
Geschichte der Philosophie im Islam : Stuttgart, 1901.

٢ ـ غولدتسيهر (Goldziher :
Kultur der Gegenwart :
مجلد ١ ، ج ٥ ، ص ٦٢ وما بعدها .

٢ ـ منطق الغزالي

١ ـ برانتيل Geschichte des Logik : (Prantl)
ج ٢ ، ص ٣٦١ وما بعدها .

٣ ـ مركزه في التاريخ

١ ـ نيكلسون (Nicholson) :
A Literary History of the Arabs
المقدمة ، و ص ٣٣٨ وما بعدها ٠

٢ ـ براون (Brown) :
A Literary History of Persia
المقدمة ٠

٣ ـ دائرة المعارف اليهـــودية : ج ٥ ، ص ٦٤٩ ومـــا بعدها ٠

٤ ـ ماكس هورتن (M. Horten) :
ملاحظات خاصة في :
Die Philos. Systeme d. spec. Theologen im Islam.
(بون ١٩١٢) ٠

٥ ـ ماكس هورتن (M. Horten) :
ملاحظات خاصة في :
Die Hauptlehren des Averroes manch seiner Schrift die Widerlegung des Gazali.
وخصوصا ص ٣٢٣ ـ ٣٢٨ ٠

٤ ـ نقد الغزالي

١ ـ (م٠ آزين ـ بالاسيوس (M. Asin - Palacios
Un faqih Siciliano, contradictor de Al Gazali
في : Centenario de Michele Amari
ج ٢ ، ص ٢١٦ ـ ٢٤١ ٠

٥ ـ مصادر عامة ودراسات

١ ـ الدكتور زكي مبارك ، الاخلاق عند الغزالي ٠

٢ ــ عبد اللطيف الطيباوي: التصوف الاسلامي العربي، ص ٤٣ ــ ٥١ ٠

٣ ــ محمد لطفي جمعة : تاريـــخ فلاسفة الاســـلام ، ص ٦٧ ــ ٧٨ ٠

٤ ــ دائرة المعارف الاسلامية : في مادة الغزالي ٠

٥ ــ ج٠ اوبرمان (J. Obermann) :
Der philosophiche und religiose Subjeclivismus Ghazàlis. Leibzig 1921.
انظر ملاحظات (بويج) (Bouges) عليه في رسالته المسماة Algazaliana ص ٥٠٤ ــ ٥٤٤ وتحليلا له فــي مجلة العالم الاسلامي بقلم (ماسينيون) ص ١٥٩ من الجزء ٥٠ ٠

٦ ــ ماكس هورتن (M. Horten) :

ص ٢٢٧ ــ ٢٣٤ ٠

٧ ــ آزين ــ بالاسيوس (Asin-Palacios) :
La mystique d'Al-Ghazali (Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth). 1914. VII 67-104.

٨ ــ آزين ــ بالاسيوس (ايضا) :
Une introduction musulmane à la vie spirituelle. Revue d'Ascétique et de mystique. IV.

٩ ــ آزين ــ بالاسيوس (ايضا) :
La mystique d'Al Gazali : Semaine d'Elhonologie religieuse, Paris, 1914, 441 - 461.

١٠ ــ الدكتور حكمة هاشم (Hikmat Hachem) :
La critique du Péripatétisme et du Néo Platonisme chez Algazali.
وهو اطروحته للدكتوراه ١٩٤٦ ، مخطوط ٠

١١ ـ ل· غوتيه (L. Gauthier) :
La philosophie musulmane, 1900.
١٢ ـ غولدتسيهر (Goldziher) :
Streitschift des Gazali gegen, die Batinijja - Sekte - Leiden 1916.

١٣ ـ م· بوييج (M. Bouyges) :
Notes sur les philosophes arabes conuus des latins au Moyen Age. IV. C'est du Maqàcid que l'on a extrait les Al Gazalis errores. Beyrouth 1921.

انظر ايضا :

Algazaliana, 1922 - Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth. VIII.

١٤ ـ آ· ج· فنزينك (A. J. Wensinck) :
La pensée de Ghazàli, Paris, 1940.

١٥ ـ كريم عزقول : العقل في الاسلام ، مكتبة صادر ، بيروت ، ١٩٤٦ ·

١٦ ـ احمد فريد رفاعي : الغزالي ، في مجلدين وثالث خصص بالمختارات ، مطبوعات دار المأمون ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ١٩٣٦م و ١٣٥٥هـ·

١٧ ـ كارا دو فو (Cara de Vaux) :
Les penseurs de l'Islam. Paris, Geuthner.

١٨ ـ دي بور (ت· ج·) : تاريخ فلاسفة الاسلام ، القاهرة ، ١٩٣٨ ·

١٩ ـ البقري (ابو العطا) ، اعترافات الغزالي ، القاهرة ، ١٩٤٣ ·

٢٠ ـ مدكور (ابراهيم) : في الفلسفة الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٤٧ ٠

٢ ـ طبعات المنقذ من الضلال

١ ـ باريز : ١٨٤٢ م ، شمولدرز ، بالعربية (في ٦٤ صفحة) ٠

٢ ـ الاستانة : ١٢٨٧هـ٠

٣ ـ الاستانة : (مطبعة الاعلام) ، ١٣٠٣هـ٠

٤ ـ مصر : ١٣٠٣هـ٠

٥ ـ مصر : (المطبعة الميمنية) ١٣٠٩هـ٠

٦ ـ بومباي : ١٨٩١م٠

٧ ـ مصر : (المطبعة الازهرية) ، ١٣١٦هـ ، على هامش الانسان الكامل ٠

٨ ـ دمشق : (مطبعة ابن زيدون) ، ١٣٥٢هـ ١٩٣٤م٠

٩ ـ القاهرة : احمد فريد رفاعي ، في الجزء ٣ من كتابه « الغزالي » ٠

٣ ـ ترجمان المنقذ من الضلال

١ ـ شمولدرز (Schmôlmers) في كتابه :
Essai sur les écoles philosophiques chez les Arabes et notamment sur la doctrine d'Al Gazali.
(باريز ، ١٨٤٢) ٠ .Paris, 1842

٢ ـ باربييه دي ميثار (Barbier de Meynard)
(المجلة الآسيوية ، كانون الثاني ١٨٧٧) ٠
Journal Asiatique, Janvier, 1877.

٣ ـ و٠ م٠ وات (W. M. Watt) :
The Faith and Practice of Al-Ghazàli, London, 1953.

٤ ـ فريد جبر (Farid Jabr) :
Al-Munqiz min ad-dalal (Erreur et délivrance). Beyrouth, 1959.

من مطبوعات اللجنة الدولية لترجمة الروائع ٠

٥ ـ للمنقذ تحليل مفصل لكنه غير تام بقلم M. Pallia
ظهر سنة ١٨٣٧ في الصفحات ١٥٥ ـ ١٩٣ من :
Mémoires de l'Académie Royale des Sciences morales et Politiques. t.I : Savants étrangers.

ملاحظة

قوبلت هذه الطبعة على نسختين خطيتين : الأولى للعالم الجليل الشيخ محمد الطنطاوي ، والثانية للأستاذ أحمد عبيد (انتقلت هذه النسخة الأخيرة إلى المكتبة الظاهرية وسجلت فيها برقم ٧٦٢١ عام) .

أما نسخة الشيخ محمد الطنطاوي فهي ضمن مجموع أول أقسامه « المنقذ » يليه « إرشاد القاصد الى أسنى المقاصد » للانصاري ، « ورسالة صغيرة في الطب » للسنوسي ، « وحي بن يقظان » لابن طفيل . والمجموع كله بخطه رحمه الله . ويبلغ عرض المكتوب من صفحة المجموع ١١ سم ، وطوله ٥و١٧ سم ويبلغ عدد أوراق المنقذ ١٥ ورقة ، في كل صفحة ٢٧ سطراً . ولقد كتب المنقذ عام ١٢٨٥ ، أي قبل صدور طبعة الاستانة بعامين .

وأما نسخة الأستاذ أحمد عبيد التي انتقلت الى المكتبة الظاهرية فهي ضمن مجموع أول أقسامه « المنقذ من الضلال » يليه كتاب « مشكاة الأنوار » للغزالي ، وكتاب « التلويحات في تفسير الله نور السموات » للعضد ، وكتاب « حلية الابدال » للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي ، وكتاب « القسطاس المستقيم » للغزالي وكتاب « برهان العلوم » له أيضاً ، وكتاب « الجام العوام عن علم الكلام » له أيضاً ، ورسالة في شرح أبيات للامام علي بن أبي

طالب للغزالي أيضاً مع ترجمة هذه الرسالةالاخيرة الى اللغة التركية.
ويبلغ عرض المكتوب من المنقذ ٩٫٥ سم، وطوله ١٦٫٥ سم ، ويبلغ عدد أوراقه ١٦ ورقة في كل صفحة ٢٣ سطراً. والنسخة حديثة كتبت بالقلم الفارسي ، وعليها تعليقات مختصرة باللغـــة العربية والتركية .

وأما ما أشير اليه في هذا الكتاب بين هلالين (...) فيفيد الزيادات الموجودة في النسخ المطبوعة ، وما أشير اليه بين معقوفتين [...] فيدل على الزيادات الموجودة في نسخة الطنطاوي ، وما أشير إليه بـ < ... > فيدل على الزيادات الموجودة في نسخة عبيد ، وحرف (ع) في الحواشي يرمز إلى النسخ المطبوعة ، كما أن حرف (ط) يرمز إلى نسخة الطنطاوي ؛ وحرف (د) إلى نسخة أحمد عبيد .

المنقذ من الضلال

بدوي

والموصل إلى ذي العزّة والجلال

لحجة الإسلام «الغزالي»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يفتتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد (المصطفى) صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله واصحابه الهادين من الضلالة .

اما بعد : فقد [١] سألتني ايها الاخ في الدين ،ان ابث اليك غاية العلوم واسرارها ، وغائلة المذاهب واغوارها ، واحكي لك ماقاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ،مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الأرتفاع عن حضيض التقليد ، إلى يفاع [٢] لاستبصار ، وما استفدته اولا من علم الكلام [٣] ، وما اجتويته [٤] ثانياً من طرق اهل التعليم [٥] القاصرين لدرك الحق على تقليد الامام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف [٦] ، وما ارتضيته آخراً من

....

(١) في (د) : وانك .

(٢) اليفاع : المشرف من الارض .

(٣) راجع فصل « علم الكلام » .

(٤) في (ع) و (ط) : احتويته ، ولعل الصواب اجتويته ، اي كرهته .

(٥) راجع فصل « مذهب التعليم » .

(٦) راجع فصل « الفلسفة » .

طريقة[١] التصوف[٢] ، وما انجلى[٣] لي في تضاعيف تفتيشي عن اقاويل الخلق ، من لباب الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلى معاودته[٤] بنيسابور[٥] بعد طول المدة ، فابتدرت لاجابتك إلى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعيناً بالله ومتوكلا عليه ، ومستوفقاً منه ، وملتجئاً اليه .

اعلموا ـ أحسن الله (تعالى) إرشادكم ، وألان للحق قيادكم ـ أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة[٦] في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه[٧] إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم انه

....

(١)في (د) : طريق ·
(٢)راجع فصل « طريقة التصوف » ·
(٣)في بعض النسخ المطبوعة : وما انحل ، وفي (ط) : وما ينحل·
(٤)في جميع النسخ المطبوعة : معاودتي ·
(٥)نيسابور : مدينة عظيمة من اعمال خراسان ·· فتحها المسلمون ايام عثمان · نبغ منها عدد كبير من ائمة العلم حتى قال عنها ياقوت : « معدن الفضلاء ، ومنبع العلماء ، لم ار فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها · » وقد هاجمها التتر واتوا على جميع ابنيتها حتى لم يبق فيها حجر قائم على آخر · ولم تزل خرابا الى اليوم ·
(٦)في (ع) : الامة ·
(٧)في (ط) : فيه ·

الناجي ، و « كل بما لديهم فرحون [١] » وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه ، وهو الصادق الصدوق [٢] حيث قال : « ستفترقُ أمتي ثلاثاً [٣] وسبعين فِرْقة ، الناجية منها واحدة » فقد كاد [٤] ما وعد ان يكون .

ولم أزل في عنفوان شبابي (وريعان عمري [٥] ، منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، اقتحم (٦) لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غَمرَتهُ خوض الجسور ، لا خوْض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم (٧) كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ،

....

(١) قرآن كريم ، سورة « الروم » (الآية : ٣٢) ، وسورة «المؤمنون» (الآية ٥٣) .
(٢) في (ط) ، (د) : المصدوق .
(٣) في (د) : نيفا .
(٤) ورد هذا الحديث في الجامع الصغير بالنص التالي : « اقترفت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت امتي على ثلاث وسبعين فرقة . » رواه ابو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابي هريرة .
في (ط) ، (د) : كان .
(٥) سقط من (ع ، ط) .
(٦) في (ط) : اتقحم .
(٧) في (ط ، د) : اقتحم .

لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع(١) لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته(٢) ، ولا ظاهرياً (٣) إلا وأريد أن اعلم حاصل (٤) ظاهريته (٥) ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا واحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً (٦) معطلاً (٧) إلا وأتجسس وراءه

---

(١) مبتدع : من البدعة ومعناه لغة : الاختراع ، ثم غلب على الحدث المكروه في الدين · ولفظ المبتدع لا يكاد يستعمل الا في الذم ·

(٢) في (ع ، ط) : بطانته : والبطانة في الاصل السريرة ، والمراد بها هنا : العقيدة الباطنة ·

(٣) الظاهرية : فرقة تنسب الى داود الظاهري ، وهي الفرقة التي تأخذ بظاهر القرآن والحديث ولا تتكلف تأويلا او تفسيرا بعيدا ·

(٤) في (ط) : حال ·

(٥) في (ع ، ط) : ظهارته ·

(٦) جاء في لسان العرب : « الزنديق : القائل ببقاء الدهر ، معرب « زندكر » اي يقول ببقاء الدهر · واختلف في الزندقة هل هي مذهب معين ام تطلق على كل الحاد ؟ فقد قال ابن قتيبة في كتابه « المعارف » عند كلامه عن اديان العرب في الجاهلية : « كانت النصرانية في ربيعة ، وكانت اليهود في حمير ، و ·· وكانت الزندقة في قريش ، اخذوها من الحيرة ·.» وكذلك « الخباط » المعتزلي يستعملها في كتابه « الانتصار » للدلالة على فرقة خاصة · على ان ابن منظور يذكر في «لسان العرب» ان احمد بن يحيى يقول : « ليس في كلام العرب زنديق · فاذا ارادت العرب معنى ما تقوله العامة ، قالوا ملحد ودهري » · راجع لزيادة الايضاح « فجر الاسلام » لاحمد امين ، ص ١٢٨، (طبعة اولى) و ضحى الاسلام » له ايضا ، ص ١٣٧

(٧) المعطل : من التعطيل ، وهو انكار صفات الخالق · فالمعطلة

للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا (١) في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت علي العقائد الموروثة ، على قرب عهدِ سنِ (٢) الصبا ، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوءٌ (٣) إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوءَ لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوءَ لهم إلا على الاسلام . وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » (٤) ، فتحرك باطني إلى (طلب) (٥) حقيقة الفطرة الاصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليدات

....

= تقول مثلا في تفسير قوله تعالى : «الرحمن على العرش استوى» ان لا عرش هناك ، ولا استواه فعليا ، بل يحملون لفظ « استوى » على معنى « استولى » وكذلك في سائر الصفات .

(١) في (ط ، د) : وضعها .

(٢) في (ع) : عهد بسن .

(٣) في (ط) و (ع) : نشو ، وهو خطأ كما في المعاجم الشهيرة .

(٤) قطعة من حديث اخرجه البخاري في صحيحه ، وتكملته : « كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء ؟ » .

(٥) سقط من (ط ، ع) .

الوالدين والاستاذين (١) ، والتمييز بين هـذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات (٢) وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . فقلت في نفسي : أولا ، إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟ فظهر لي ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً (٣) فإني اذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل : لا ، بل الثلاثة أكبر < من العشرة (٤) > بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه في معرفتي (٥) ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ! فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت ان كل مالا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا امان معه فليس بعلم يقيني .

....

(١) الاستاذين ج استاذ ، وهو لفظ فارسي معرب ويجمع على اساتذة واساتيذ ايضا .
(٢) في (ط) : بتلقينات .
(٣) في (ط) : وامكانا .
(٤) سقط من (ط ، ع) .
(٥) في (د) : وشاهدت منه ذلك لم اشك في معرفتي بسببه .

مداخل السفطة (١) وجحد العلوم

ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة (٢) إلا في الحسيات والضروريات . فقلت : الآن بعد حصول اليأس ، لا مطمع (٣) في اقتباس المشكلات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات . فلا بد من إحكامها أولاً لأتيقن (٤) أن ثقتي بالمحسوسات ، وأماني من الغلط في الضروريات ، من جنس أماني الذي كان من قبلُ في التقليديات (٥) ، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر (٦) فيه ولا غائلة (٧)

....

(١) ذهب بعض فلاسفة العرب الى ان هذه اللفظة منحوتة من « صوفيا » وهي الحكمة ومن « اسطس » وهي المموهة ، والحقيقة انها مأخوذة من الكلمة اليونانية « سوفيزما sophisma ومعناها المهارة في الامور ، ومنها اشتق « سفسطيس sophistes » اليوناني · الا انه اصبح يطلق بشيء من الزراية على اولئك الذين دأبهم ان يستعملوا الاقاويل الخلابة والمغالطة في الكلام ، لانهم اتخذوا التعليم مهنة · واخذوا يلقنون تلاميذهم كيف ينصرون او يهدمون اي رأي كان متى شاؤوا من غير اعتبار للحق والعدل كما في معجمي « لالاند » و « فرانك » ·

(عن احصاء العلوم باختصار)

(٢) في (د) : عاطلة من علوم موصوفة بهذه الصفات ·

(٣) في (د) : طمع ·

(٤) في (ط ، د) : لا تبين ·

(٥) في جميع النسخ المطبوعة : التقليدات ·

(٦) في (ط) : لاعور ، وفي (د) : لاغور ·

(٧) في (ع) : غاية ·

له ؟ فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ، وانظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها(١) ؛فانتهى بي طول التشكك(٢) إلى أن لم (٣) تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات ايضاً ، واخذت تتسع للشك فيها وتقول (٤) : من أين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غيرمتحرك ، وتحكم بنفي الحركة ؟ ثم بالتجربة والمشاهدة ، بعد ساعة ، تعرف أنه متحرك(٥) وأنه لم يتحرك دفعة <واحدة (٦) >بغتة، بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم يكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً (٧) في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه (٨) أكبر من الأرض في المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته ، فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد(٩)،والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالا .

....

(١) في (د) : فيها نفسي .
(٢) في (ط ع) : التشيك .
(٣) في (ط) : لا .
(٤) في (ط ، ع) : واخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول .
(٥) في (ع) : يتحرك .
(٦) سقط من (ط ، ع) .
(٧) في (ط) : الكواكب فتراها صغارا .
(٨) في (ط) : انها .
(٩) في (د) : في شيء واحد .

فقالت المحسوسات : بم تأمن (١) أو تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخر ، إذا تجلى ، كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه . وعدم تجلي ذلك الادراك ، لا يدل على استحالته . فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا ، وأيدت اشكالها بالمنام ، وقالت : أما تراك تعتقد في النوم اموراً ، وتتخيل أحوالا ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك [التي انت فيها] ؟ لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالاضافة اليها ! فإذا وردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة ما يدعيه (٢) الصوفية انها حالتهم : اذ يزعمون انهم يشاهدون في احوالهم التي (لهم) ، اذا غاصوا في أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم ، احوالا لا توافق هذه المعقولات . ولعل تلك الحالة هي الموت ، اذ قال رسول الله ﷺ : « الناس نيام فاذا ماتوا

---

(١) في (ط ، ع) : تأمل .
(٢) في (ع) : يدعيها .

انتبهوا » (١) فلعل حياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة . فاذا مات ظهرت له الأشياء ، على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (٢) » . فلما خطرت لي هذه الخواطر ، (و) انقدحت في النفس ، حاولت لذلك (٣) علاجاً فلم يتيسر ، اذ لم يكن دفعه الا بالدليل (٤) ، ولم يكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الأولية . فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل . فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من (٥) ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام (٦) ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف . فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة (٧) فقد

....

(١) لم يصح هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد جاء في كتاب « اسنى المطالب في احاديث مختلفة المراتب » لمحمد الحوت ان هذه الحكمة من كلام علي بن ابي طالب .

(٢) قرآن كريم ، سورة « ق » ، الآية ٢٢

(٣) في (ع ، د) : فحاولت .

(٤) في (د) : بدليل .

(٥) في (ط) وفي (د) : عن ذلك المرض والاعتدال .

(٦) في (د) : ولا ترتيب كلام .

(٧) في (ع) : المجردة .

ضيق رحمة الله [تعالى] الواسعة ؛ ولما سئل رسول الله ﷺ (١) عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام (٢) . قال (٣) « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » فقيل : « وما علامته ؟ » فقال : « التجافي عن دار الغرور، والانابة إلى دار الخلود (٤) » . وهو الذي قال ﷺ فيه : « إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره (٥) » . فمن ذلك النور ينبغي ان يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الالهي في بعض الأحايين ، ويجب الترصد له (٦) كما قال عليه السلام : « ان لربكم في ايام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها (٧) » .

....

(١) في (ط ، ع) : عليه السلام .
(٢) سورة « الانعام » ، الآية ١٢٥
(٣) في (ط ، ع) : فقال .
(٤) اخرج هذا الحديث ابن جرير وعبد الرزاق وابن ابي حاتم . وساقه الامام ابن كثير باسانيده في تفسيره ج ٣ ص ٣٤٩ ثم قال : « فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضا . » .
(٥) ورد هذا الحديث في مسند احمد بالنص التالي : « ان الله تعالى خلق خلقه في ظلمة فالقى عليهم من نوره . فمن اصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى ومن اخطاه ضل . » عن ابن عمر.
(٦) في (ط) : لها .
(٧) ورد هذا الحديث في الفتح الكبير للسيوطي بالنص التالي : « ان لربكم في ايام دهركم نفحات ، فتعرضوا له ، لعله ان يصيبكم نفحة منها ، فلا تشقون بعدها ابدا . » رواه الطبراني عن محمد بن مسلمة .

والمقصود من هذه الحكايات أن يعمل (١) كمال الجد في الطب ، حتي ينتهي (٢) إلى طلب ما لا يطلب . فان الأوليـــات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة . والحاضر اذا طلب فقـــد (٣) واختفى . ومن طلب ما لا يطلب ، فلا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب .

....

(١) في (ط) : الحكاية إن نعلم ، وفي (د) : الحكاية ان تعلم .
(٢) في (د) : انتهى .
(٣) في (ط) : نفر .

اصناف الطالبين

ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض (١) بفضله وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

١ ــ **المتكلمون** : وهم يدعون (٢) أنهم أهل الرأي والنظر ؛

٢ ــ **الباطنية** : وهم يزعمون أنهم أصحاب (٣) التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الامام المعصوم ؛

٣ ــ **الفلاسفة** : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان ؛

٤ ــ **الصوفية** : وهم يدعون (٤) أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة فقلت في نفسي : الحق لا يعدو (٥) هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبل (٦) طلب الحق ، فإن شذ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته ؛ و (من) (٧) شرط المقلد

....

(١) في (ط) : ولما كفاني الله مؤونة هذا المرض ·
(٢) في (ط) : يزعمون ·
(٣) في (د) : وهم يدعون انهم اهل ·
(٤) في (د) : يزعمون ·
(٥) في (ع) : لا يعدو عن ·
(٦) في (ط ، د) : سبيل ·
(٧) سقط من (د) ·

أن لا يعلم أنه مقلد ، فاذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو شعب لا يرأب ، وشعب لا يلم بالتلفيق والتأليف،إلا أن يذاب بالنار ، ويستأنف له صنعة (١) اخرى مستجدة .

فابتدرت (٢) لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق (٣) مبتدئاً بعلم الكلام ، ومثنياً بطريق الفلسفة ، ومثلثاً بتعليم (٤) الباطنية ، ومربعاً بطريق الصوفية .

....

(١) في (ع) : الا ان تذاب بالنار · ويستأنف لها صيغة اخرى مستجدة ·

(٢) في (ط) : فابتدأت ، وفي (د) : فانتدبت ·

(٣) في (د) : هؤلاء الفرق ·

(٤) في (ع ، د) : بتعليمات ·

١ ــ علم الكلام : مقصوده وحاصله

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام (١) فحصلته وعقلته (٢) ،وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودي ؛ إنما المقصود (٣) منه حفظ عقيدة أهل السنة [على أهل السنة] ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة . فقد القى الله (تعالى) إلى عباده على لسان رسوله

....

(١) نشأ علم الكلام في الاسلام على اثر قيام بعض العلماء بالبحث في العقائد الدينية والاستعانة بالادلة العقلية والحجج المنطقية لتقرير الحق فيها . وكان ذلك يدعو الى المناظرة والجدال بالاقوال فانتقلت واسطة المناظرة ، وهي الكلام ، الى العلم كله، وهكذا ظهرت الفرق المعروفة في الاسلام مثل المرجئة والقدرية والمعتزلة وسمي جميع العلماء الذين يبحثون في العقائد الدينية بحثا عقليا منطقيا بالمتكلمين . وربما كان من اسباب تسميته علم الكلام ان اهم موضوع دار حوله الجدل والتنازع هو اثبات الكلام النفسي .
وعلى كل حال فان الكلام اقتصر اخيرا على العلم الذي يتضمن الحجاج والدفاع عن العقائد الدينية بالادلة العقلية والاساليب المنطقية ، والرد على الخارجين عن مذاهب اهل السنة .
(راجع ابن خلدون ، المقدمة ، فصل « علم الكلام »، وكذلك مادة «علم الكلام» في دائرة المعارف الاسلامية)

(٢) في (ط) : وعلقته .

(٣) في (ط ، ع) وانما مقصوده .

عقيدة هي الحق ، على ما فيـــه صلاح دينهم ودنيـــاهم ، كما نطق بمعرفته (١) القرآن والأخبار . ثم القى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها . فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهـــم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدع (٢) المحدثة ، على خلاف السنة المأثورة ؛ فمنه نشأ علم الكلام وأهله (٣) ولقـــد قام طائفة منهم بما ندبهم الله (تعالى) اليه (٤) فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبـوة ، والتغـيير في وجه ما أحدث من البدعة ، ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها (٥) من خصومهم ، واضطرهم إلى تسليمها : إما التقليد ، أو اجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار . وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع في حق (٦) من لا يسلم سوى الضروريات شيئـــاً (أصلا) فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً . نعم ، لما نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه ، وطالت المدة ، تشوق المتكلمون إلى محاولة (٧) الذب عن (السنة)

(١) في (ط ، د) : بمقدماته .
(٢) في (ط ، ع) : البدعة .
(٣) في (ط ، ع) : فلقد .
(٤) في (ط) : له .
(٥) في (ط) : تسلم .
(٦) في (ع) : جنب .
(٧) في (د) : تشوف ، وفي (ع) : تشوف المتكلمون الى مجاوزة.

بالبحث عن حقـــائق الأمور ، وخاضوا في البحث عن الجواهـر والأعراض (١) وأحكامها . ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه (٢) الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يمحق (٣) بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق . ولا أبعد (٤) أن يكون قد حصل ذلك لغيري ، بل لست أشك في حصول ذلـك لطائفـة ، ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور الـــتي ليست من الأوليات !

والغرض الآن حكاية حالي ، لا الانكار على من استشفى (٥) به ، فان أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء . وكم من دواء ينتفـع به مريض ويستضر به آخر (٦) !

....

(١) الجوهر في اللغة : الاصل ، واصطلاحا : ما قـــام بنفسه ٠ والعرض هو الموجود الذي يحتاج الى موضوع يقوم به ، كاللون المحتاج في وجوده الى جسم وقد قسم الحكماء الاقدمون الاعراض الى تسعة : الكم، الكيف، الاضافة، الاين، المتى، الملك، الوضع، الفعل ، الانفعال ، وقد جمعها بعضهم بقوله :

نريد الطويل الازرق ابن مالك ... في بيتـه بالامس كان متكي
بيـده رمـح لـواه فالتـوى ... فهذه عشـر مقالات سـوا

(٢) في (ط ، ع) : في ٠
(٣) في (ع) : ما يمحو ٠
(٤) في (ط) : ولا بعد ٠
(٥) في (د) : يستشفي ٠
(٦) في (ط) : الآخر ٠

٢ ــ الفلسفة

لحاصيلها ــ ما يذم منها وما لا يذم ــ وما يكفر فيه قائله وما لا يكفر ــ وما يبدع فيه وما لا يبدع ــ وبيان ما سرقوه من كلام اهل الحق ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم في درج ذلك ــ وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق ــ وكيفية استخلاص صراف الحقائق الخالص من الزيف والبهرج من جملة كلامهم·

ثم اني ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم **الفلسفة** . وعلمت يقيناً انه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي اعلمهم في أصل [ذلك] ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ؛ فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة . وإذ ذاك يمكن ان يكون ما يدعيه من فساد حقاً . ولم أر احداً من علماء الاسلام صرف عنايته وهمته الى ذلك .

ولم يكن في كتب « المتكلمين » من كلامهم ، حيث اشتغلوا بالرد عليهم ، إلا كلمات معقدة مبددة ، ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار بها بعاقل (١) عامي ، فضلا عمن يدعي دقائق (٢)

....

(١) في (ع) : بغافل ·
(٢) في (د) : حقائق ·

العلوم . فعلمت ان رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي (١) في عماية . فشمرت عن ساق الجد ، في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المطالعة من غير استعانة باستاذ ، وأقبلت على ذلك في اوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وانا ممنو (٢) بالتدريس والافادة لثلاث مائة نفر (٣) من الطلبة ببغداد . فأطلعني الله سبحانه [وتعالى] ، بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة ، على منتهى علومهم في أقل من سنتين . ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره ، حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس، وتحقيق وتخييل اطلاعاً لم أشك فيه .

فاسمع الآن حكايتهم وحكاية حاصل علومهم ، فاني رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً ، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة (٤) الكفر والالحاد ، وان كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه .

....

(١) في (ط) : زد .
(٢) ممنو : مبتلى ، وفي (د) : ضمين .
(٣) في (ط) : نفس .
(٤) في (ع) : سمة .

اصناف الفلاسفة
وشمول وصمة الكفر كافتهم

أعلم : انهم ، على كثرة فراقهم واختلاف مذاهبهم ، ينقسمون إلى ثلاثة اقسام : ألدهريون ، والطبيعيون ، والالهيون .

الصنف الاول : **الدهريون** : وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا ان العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان (١) ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً . **وهؤلاء هم الزنادقة** : .

والصنف الثاني : **الطبيعيون** : وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ، ما اضطروا (٢) معه إلى

....

(١) في (د) : ولم يزل الحيوان من نطفة والنطفة من حيوان .
(٢) في (ع) : فاضطروا .

الاعتراف بفاطر (١) حكيم ، مطلع على غايات الامور (٢) ومقاصدها . ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الاعضاء مطالع ، الا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الانسان . إلا ان هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ، ظهر عندهم ، لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به . فظنوا ان القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا ، وانها تبطل ببطلان مزاجه فتنعدم (٣) ثم إذا انعدمت ، فلا يعقل اعادة المعدوم كما زعموا . فذهبوا (إلى) ان النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وانكروا الجنة والنار [والحشر والنشر] ، والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ؛ فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات انهماك الانعام .

وهؤلاء أيضاً زنادقة : لأن أصل الايمان : هو الايمان بالله واليوم الآخر . وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

الصنف الثالث : الالهيون : وهم المتأخرون منهم [مثل] : سقراط . وهو أستاذ افلاطون وافلاطون استاذ أرسطاطاليس ،

....

(١) في (ع) : بقادر .
(٢) في (د) : العلوم .
(٣) في (ط،ع) : فينعدم

وأرسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذّب [لهم] العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محرراً (١) من قبلُ ، وانضج لهم ما كان فجاً من علومهم ، وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الاولين من الدهرية والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنــوا به غيرهم . « وكفى الله المؤمنين القتـــال (٢) » بتقاتلهم . ثم رد أرسطاطاليس على افلاطون وسقراط ، ومن كان قبلهم من الالهين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، الا انه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها (٣) ، فوجب تكفيرهم وتكفير وتكفير شيعتهم (٤) من المتفلسفة الإسلاميين ، كابن سينا (٥)

....

(١) في (ع) و (د) : وخمر لهم ما لم يكن مخمرا .
(٢) قرآن كريم سورة « الاحزاب » الاية ٢٥
(٣) في (ع) : منـها .
(٤) في (ع) و (د) : متبعيهم .
(٥) ابن سينا (٣٧٠ ــ ٤٢٨ هـ) ويسميـه الفرنـج Avicenne فيلسوف عربي ، تقرب فلسفته من فلسفة ارسطو وربما كانـت مشتملة ايضا على كثير من الاصول الافلاطونية . كان فيلسوفا عظيما وطبيبا حاذقا وكتابي « القانون » بقي قانون اوربا الطبي قرونا عديدة ، وله غيره من الكتة الشهيرة كتابا « النجـاة » و « الشـفاء » .
راجـع : جميل صليبا :
« من افلاطون الى ابن سينا » مكتـب النشـر العربي بدمشق و « ابـن سينا : درس تحليـل منتخبات » مكتب النشر العربي بدمشـق .

والفـــارابي (١) وغيرهمـــا (٢) . على انـــه لم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة الاسلاميين كقيـام هذين الرجلين . وما نقله غيرهما (٣) ليس يخلو عن تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم ؛ وما لا يفهم كيف يرد أو يقبل ؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس ، بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر في ثلاثة أقسام :

١ ـ قسم يجب التفكير به ؛
٢ ـ وقسم يجب التبديع به ؛
٣ ـ وقسم لا يجب إنكاره أصلاً ، فلنفصله .

....

(١) الفارابي (٢٦٠ ـ ٣٣٩ هـ) احد اعـلام الفلسفة الاسلاميـة ، فارسي الاصل ، رحل في صباه الى بغداد ، ثم التحق بحاشية سيف الدولة وبقي عنده الى ان مات وكان له فضل عظيـم على فلسفة ارسطو ، فقد اكب على نقلها للعربية، وسمي لذلك بالمعلم الثاني ، لان ارسطو معروف باسم المعلم الاول · وقد بلغتنـــا كتب ارسطو منقولة الى اللغات الاوربية القديمة والحديثة على النمط الذي اختاره الفارابي ، وقد كان فوق هذا كله موسيقيا بارعا · والمشهور انه هو الذي اخترع الالة المعروفة «بالقانون» وقد عرض الفارابي في قسم من مؤلفاته فلسفته الخاصة ·ولكن لم يصلنا مـن تلك المؤلفات الا القليل · وقـد نشر (ديترشي Dieterci) في لندن سنة ١٨٩٠ ثـماني رسائل معنونـة بـ (مباحثات فلسفية للفارابي ـ Alfarabi's Philosophische Abhandlungen) والظاهـر منفلسفتهالخاصة انه جـمع بيـن فلسفة ارسطـو والافلاطونية الحديثة بمهارة فائقة ودقة تامـة ·

(٢) في (ط،د) :وامثالهم ·

(٣) في (ط) : غيرهم ·

اقسام علوم

اعلم : أن علومهم بالنسبة إلى الغرض الذي تطلبه ستة أقسام : رياضية ، ومنطقية ، وإلهية ، وطبيعية ، وسياسية وخلقية .

١ ـ **أما الرياضية** : فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها (١) بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها . وقد تولدت منها آفتان :

احداهما ان من ينظر فيها يتعجب (٢) من دقائقها ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ، ويحسب (٣) أن جميع علومهم في الوضوح [وفي] وثاقة البرهان كهذا العلم . ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة (٤) فيكفر بالتقليد المحض

(١) في (ط) و (د) : منه شيء .
(٢) في (ع) : الاولى من ينظر فيها يتعجب .
(٣) في (ط) : فيحسب .
(٤) في (ع،د) : ما تناولته الالسن .

ويقول لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم ! فاذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم ، استدل(١) على أن الحق هو الجهد والانكار للدين . وكم رأيت من يضل (٢) عن الحق بهذا العذر (٣) ولا مستند له سواه ! وإذا قيل له : الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة ، فلا يلزم ان يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطب (٤) ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها [رتبة] البراعة والسّبق ، وإن كان الحمق والجهل (قد) يلزمهم في غيرها . فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الالهيات تخميني ؛ لا يعرف ذلك إلا من جرّبه وخاض فيه . فهذا إذا قرر على هذا الذي ألحد (٥) بالتقليد ، ولم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ، والشهوة الباطلة (٦) ، وحب التكايس على ان يصر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها .

فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم ، فانها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما

....

(١) في (ط،ع) : فيستدل

(٢) في (ط،ع) : القدر .

(٣) في (ع) : ممن ضل .

(٤) في (د) : الحاذق في الطب والكلام حاذقا في الفقه والمنطق .

(٥) في (ط،ع) : اتخذ

(٦) في (ط،ع) : شهوة البطالة .

كانت من مبادىء علومهم سرى (١) اليه شرهم وشؤمهم ، فقل من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى .

الآفة الثانية : نشأت من صديق للاسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بانكار كل علم منسوب اليهم : فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها حتي أنكر قولهم في الكسوف والخسوف ، وزعم ان ما قالوه على خلاف الشرع فلما قرع ذلك سمع (٢) من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ، ولكن أعتقد أن الاسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فازداد (٣) للفلسفة حباً وللأسلام بغضاً . ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الاسلام ينصر بانكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والاثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للامور الدينية . وقوله صلى الله عليه وسلم (٤) : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله (تعالى) لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله (تعالى وإلى الصلاة) » (٥) ،

....

(١) في (ط، ع) : يسري
(٢) في (ع) : يسمع .
(٣) في (ع) : فيزداد .
(٤) في (ط،ع) : عليه السلام .
(٥) ورد هذا الحديث في الجامع الصغير بالنص التالي : « ان الشمس والقمر لا ينكسفان لموت احد ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده فاذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم .»

وليس في هـــذا ما يوجب انكـــار علم الحساب المعرف بمسير (١) الشمس والقمر واجتماعها او مقابلتهما على وجـــه مخصوص . أما قوله (عليه السلام) : « لكن الله إذا تجلى لشيء خضع له » فليس توجد هذه الزيادة في الصحيح (٢) أصـــلاً . فهذا حكم (٣) الرياضيات وآفتها .

واما المنطقيات : فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً ، بل هي النظر في طرق (٤) الأدلة (٥) والمقاييس (٦) وشروط مقدمات البرهان (٧) وكيفية تركيبها ، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه (٨) . وأن العلم اما تصور (٩) وسبيل معرفتــه

....

(١) في (د) :لمسير .
(٢) في (ط،ع) : الصحاح .
(٣) في (ع) : حكمـــة .
(٤) في (ط) : بل هو النظر في طرفي .
(٥) الدليل في الاصلاح : هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخــر .
(٦) القياس : قول مؤلف من قضايا اذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخــر .
(٧) البرهان هو القياس المؤلف من اليقينيات .
(٨) في (ع) : ترتيبها ، وفي (د) : تركيبها .
(٩) التصور هو ادراك الماهية بدون ان يحكم عليها بنفي او اثبات.

الفلاسفة » ، وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل يتبين انها مندرجة تحتها ، وأصل جملتها ان تعلم ان الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها . والشمس (١) والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته ؛

٤ ــ وأما **الالهيات** ففيها اكثر اغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبرهان (٢) على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها (٣) ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس (٤) فيها من مذاهب الاسلاميين ، على ما نقله الفارابي وابن سينا ، ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر . ولابطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنّفنا (٥) كتاب «التهافت» أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة الاسلاميين (٦) وذلك في قولهم :

١ ــ إن الأجساد لا تحشر ، وانما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة ، (والمثوبات) والعقوبات روحانية لا

....

(١) في (د) : فالشمس ٠
(٢) في (ط،ع) : بالبراهين ٠
(٣) في (ع) : فيه ٠
(٤) في (ع) و (د) : ولقد قرب ارسطاطاليس مذهبه ٠
(٥) في (د) : صنفت ٠
(٦) في (ط،ع) : المسلمين ٠

جسمانية ؛

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية : فإنها ثابتة (١) أيضاً ، ولكن كذبوا في انكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به ؛

٢ — ومن ذلك قولهم : « إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات » ؛ وهذا (٢) أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه : « لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض (٣) » .

٣ — ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته ، فلم (٤) يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل .

وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم انه عالم (٥) بالذات ، لا يعلم زائد (على الذات) وما يجري مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة (٦) ولا يجب

....

(١) في (ط،ع) : كائنة .
(٢) في (ع) و (د) : فهو .
(٣) قرآن كريم سورة « سبأ » الاية ٣
(٤) في (د) : ولم .
(٥) في (ط،ع) : عليم .
(٦) المعتزلة من اعظم الفرق الاسلامية التي تركت اثرا جليلا واضحا في حياة المسلمين العقلية . ذكروا في تاريخ نشأتها ان واصلا بن عطاء كان يجلس الى الحسن البصري . وكان من جملة ما اختلف فيه الخوارج والجماعة ، ان الخوارج قالوا بتكفير مرتكب الكبائر ، وقالت الجماعة بانه مؤمن ، الا انه فاسق . ولم يكن بد من ان يشترك واصل في ذلك . فكان ذلك بخروجه

تكفير المعتزلة بمثل ذلك . وقد ذكرنا في كتاب « فيصـــل

....

= عن الفريقين وقوله : « ان الفاسق من هذه الامة لا مؤمـن ولا كافر ، بل له منزلة بين المنزلتين · » فطرده الحسن من مجلسه، فاعتزل عنه وجلس اليه عمرو بن عبيد، فقيل لهما ولاتباعهما : « معتزلون » ·
هذا هو الرأي المشهور في ظهور هذه الفرقة، وهناك آراء اخرى تجدها في الكتب التي بحثت عن الفرق الاسلامية ، وتجدها في فجر الاسلام ، ص ٣٤٤ ط ١
وتتلخص تعاليم المعتزلة في الاصول الاتية :
١ ـ القول بالمنزلة بيـن المنزلتين ، اي ان اي مرتكب الكبيـرة ليس بكافر ولا مؤمن ، لكنه فاسق ، والفاسق يستحق النـار بفسقـه ·
٢ ـ القول بالقدر وان الله لا يخلق افعال الناس وانـما هـم الذين يخلقون اعمالهم ، وانهم من اجل ذلك يثابون او يعاقبون ولهذا وحده يستحق ان يوصف الله بالعدل ·
٣ ـ القول بالتوحيد ، فنفوا ان يكون لله تعالى صفات ازلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل الله عالم وقادر وحي وسميع وبصير بذاته ، وليست هناك صفات زائدة عـلى ذاته · والقول بوجود صفات قديمة قول بالتعدد ولا كثرة فـي ذاته البتة ، وهذا ما اشار اليه الغزالي ·
٤ ـ قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ولو لم يرد بهما شرع ، والشرع لم يجعل الشيء حسنا بأمـره به ، ولا القبيح قبيحا بنهيه عنه ، بل الشرع انما امر بالشيء الحسن ونهى عن الاخر لقبحه ·

هذا من حيث العقائد ، الا اننا نجدهم ـ مـن نـاحية اخرى ـ تعرضوا للامور السياسية التي سبقت عصرهم فاباحوا لانفسهم تشريح الصحابة ونقدهم والحكم على اعمالهم وحروبهم ·
وكان المعتزلة اسرع الفرق للاستفادة من الفلسفة اليونانيـة وصبغها صبغة اسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم وهم الذين خلقوا علم الكلام في الاسلام ، وهم اول من تسـلح

التفرقة بين الاسلام والزندقة » ما يتبين به (١) فساد رأي من يتسارع الى التكفير في كل ما يخالف مذهبه .

٥ ــ **وأما السياسيات** فجميع (٢) كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية (والايالة) السلطانية ، وانما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الانبياء (٣) ؛

٦ ــ **وأما الخلقية** : فجميع كلامهم (فيها) يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر اجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وانما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المواظبون على ذكر الله تعالى ، وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق الى الله تعالى بالاعراض عن ملاذ الدنيا . وقد انكشف لهم في مجاهدتهم (٤) من أخلاق الناس وعيوبها ، وآفات أعمالها ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلاً بالتجمل بها الى ترويج باطلهم . ولقد كان في عصرهم ،

....

من المسلمين بسلاح خصومهم في الدين .
وقد لعب المعتزلة في ايام المأمون والمعتصم دورا هاما ، اذ كان مذهبهم هو الرسمي ، وقد حملوا الناس على الاخذ بفكرة خلق القرآن .
(راجع « تاريخ الجهمية والمعتزلة » للقاسمي)

(١) في (ط،ع) : فيه .
(٢) في (ع) : فمجموع .
(٣) في (د) : الانبياء عليهم السلام .
(٤) في (ع) و (د) : حالاتهم .

بل في كل عصر جماعة من المتألهين ، لا يخلي الله [سبحانه] العالم عنهم ، فانهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة على أهل الأرض كما ورد في الخبر حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : « بهم تمطرون وبهم ترزقون ومنهم كان أصحاب الكهف (١) » . وكانوا في سالف الأزمنة ، على ما نطق ، به القرآن ، فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان : آفة في حق القابل ، وآفة في حق الراد :

١ ـ **أما الآفة التي في حق الراد** (٢) **فعظيمة** : إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدوّناً في كتبهم ، وممزوجاً بباطلهم ، ينبغي أن يهجر ولا يذكر بل ينكر على [كل] من يذكره إذ لم يسمعوه أولاً إلا منهم ، فسبق إلى عقولهم الضعيفة انه باطل ، لأن قائله مبطل ، كالذي يسمع من النصراني قول : « لا إله إلا الله ، عيسى رسول الله » فينكره ويقول : « هذا كلام النصارى » ؛ ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول ، أو باعتبار انكاره نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ! ؟ فإن لم يكن كافراً الا باعتبار انكاره ، ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر مما هو حق في نفسه ،

....

(١) لم نعثر في كتب الحديث الشهيرة على هذا الحديث . ولكن وجدنا في الجزء الثالث ص ٢٠٧ من البخاري ما يقرب من معناه ، اذ قال عليه السلام : « هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم ؟ » .

(٢) في (ع) و (د) : اما آفته في حق من رده .

وإن كان ايضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول ، يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق . والعاقل يقتدي بسيد العقلاء علي رضي الله عنه (١) ، حيث قال : « لا تعرف الحق بالرجال (بل) اعرف الحق تعرف أهله » و (العارف) العاقل يعرف الحق ، ثم ينظر في نفس القول : فان كان حقاً ؛ قبله سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً ؛ بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل (٢) أهل الضلال ، عالماً بأن معدن الذهب الرغام . ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلاب (٣) ، وانتزع الابريز الخالص من الزيف والبهرج (٤) ، مهما كان واثقاً ببصيرته ؛ وانما يزجر عن معاملة القلاب القروي ، دون الصيرفي (البصير) ؛ ويمنع من ساحل البحر الأخرق ، دون السباح الحاذق ؛ ويصد عن مس الحية الصبي دون المعزم (٥) البارع .

ولعمري ! لما غلب على اكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة

....

(١) في (ط) : والعاقل (بقول امير المؤمنين) علي (بن ابي طالب) رضي الله عنه ·
(٢) في (ط،د) : من تضاعيف كلام ·
(٣) القلاب : هو الرجل الذي تكون منه السقطة فيتداركها بأن يقلبها عن جهتها ويصرفها الى غير معناها · هذا هو المعنى الاصلي لهذه اللفظة · والظاهر هنا ان الغزالي يريد بها مزيفي النقود كما هو الراجح من السياق ·
(٤) في (ط) : التبهرج ·
(٥) المعزم : الراقي ، اي الذي يقرأ الرقي ·

والبراعة وكمال العقل (وتمام الآلة) في تمييز الحق عن (الباطل والهدى عن الضلالة) وجب حسم الباب (١) في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال (٢) ما أمكن ؛ اذ لا يسلمون عن الآفة الثانية التي سنذكرها (أصلاً) ، وان سلموا عن (هذه) الآفة التي ذكرناها .

ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في أسرار علوم الدين ، طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم ، ولم تنفتح الى اقصى غايات المذاهب بصائرهم ، وزعمت ان تلك الكلمات من كلام الأوائل ، مع ان بعضها (٣) من مولدات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر ؛ وبعضها يوجد في الكتب الشرعية ، واكثرها موجود معناه في كتب الصوفية . وهب انها لم توجد الا في كتبهم ، فاذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه ، مؤيداً بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغي ان يهجر ويترك (٤) ! فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا الى ان يهجر كل حق سبق اليه خاطر مبطل ، للزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة (٥) آيات من آيات القرآن وأخبار الرسول وحكايات

---

(١) في (ط) : المادة ٠
(٢) في (ط) : الضلالة ٠
(٣) سقط من (د) ٠ (٤) في (ع) : ينكر ٠ (٥) في (د) : جملة من آيات القرآن ٠

السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية لأن صاحب كتاب « اخوان الصفا » (١) أوردها في كتابه مستشهداً بها ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها الى باطله ، ويتداعى ذلك الى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا بابداعنا اياه كتبهم (٢) . واقل درجات العالم : أن يتميز عن العامي الغمر (٣) .

فلا يعاف العسل ، وان وجده في محجمة الحجام ، ويتحقق

....

(١) اخوان الصفاء وخلان الوفاء : جمعية سرية تألفت في منتصف القرن الرابع في البصرة وعرف لها فرع في بغداد · نشأت في وقت كانت كلمة فيلسوف تساوي بمفهومها معنى زنديق مارق · تستر اصحابها ما امكنهم التستر لنشر آرائهم واذاعة معتقداتهم بين الناس ، خوفا على حياتهم من ان يصيبها سهم اعدائهم· واساس مذهب هذه الجماعة : « ان الشريعة الاسلامية تدنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لانها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة المحمدية فقد حصل الكمال » · وتعد رسائل اخوان الصفا موسوعة فلسفية علمية صاغها اصحابها في قالب ادبي بديع · وهي اثنتان وخمسون رسالة ، تطرق اصحابها لذكر جميع العلوم والمعارف الطبيعية والرياضية والفلسفية والالهية والعقلية في كل هذه الرسائل ، الا الاخيرة وهي الرسالة الجامعة فقد اجملوا خلاصة فلسفتهم فيها ·

طبعت هذه الرسائل للمرة الاولى في الهند ١٨١٢ م ثم طبع المستشرق الالماني ديتريشي خلاصة عنها سنة ١٨٨٦ م في برلين ، وفي سنة ١٩٢٨ م ظهرت لها طبعة تامة في مصر · اما الرسالة الجامعة فقد حققها الدكتور جميل صليبا ونشرها المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٤٨ ·

(٢) في (ع) : اياها كتبهم · (٣) الغمر : الجاهل ·

أن المحجمة لا تغير ذات العسل ، فان نفرة الطبع عنه مبنية على جهل عامي منشؤه أن المحجمة ، انما صنعت للدم المستقذر ، فيظن أن الدم مستقذر لكونه في المحجمة ، ولا يدري انه مستقذر لصفة في ذاته ، فاذا عدمت (هذه) الصفة في العسل ، فكونه في ظرفه لا يكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقذار ، وهذا وهم باطل ، وهو غالب على اكثر الخلق . فاذا (١) نسبت الكلام واسندته الى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه وان كان باطلاً ؛ وان اسندته الى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وان كان حقاً . فأبداً يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال ! هذه آفة الرد .

٢ ـ **والآفة الثانية آفة القبول** : فان من نظر في كتبهم « كاخوان الصفا » وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، ربما استحسنها وقبلها ، وحسن اعتقاده فيها ، فيسارع الى قبول باطلهم الممزوج به لحسن ظن حصل فيما (٢) رآه واستحسنه ، وذلك نوع استدراج الى الباطل .

ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها

....

(١) في (ط،ع) : فمهما .
(٢) في (د) : لحسن ظنه مما رآه واستحسنه .

من الغدر (١) والخطر . وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطـــالعة تلك الكتب . وكما يجب صون الصبيـان عن مس الحيـات ، يجب صون الأسماع عن مختلط (٢) تلك الكلمات ؛ وكما يجب على المعزم ان لا يمس الحية بين يدي ولده الطفل ، اذا علم انـه سيقتدي به ويظن انه مثله ، بل يجب عليه ان يحذره [منه] ، بأن يحذر هو [في] نفسه [ولا يمسها] بين يديـه ، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله . وكما ان المعزم الحاذق اذا اخذ الحية وميز بين الترياق والسم ، واستخرج منهـــا (٣) الترياق وإبطل السم ، فليس له ان يشح بالترياق على المحتاج اليـــه . وكذا الصراف الناقد البصير اذا ادخل يده في كيس القلاب ، واخرج منه الابريز الخـالص ، واطرح (٤) الزيف والبهرج ، فليس له ان يشح بالجيد المرضي على من يحتاج اليه ؛ فكذلك العالم . وكما ان المحتاج الى الترياق ، اذا اشمأزت نفسه منه ، حيث علم انه مستخرج من الحية التي هي مركز السم [وجب تعريفه] ، والفقير المضطر الى المال ، اذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب ، وجب تنبيهه على ان نفرتـــه

....

(١) في (ط) : الغرور .
(٢) في (د) : تخليط .
(٣) في (ط،ع) : فاستخرج منه .
(٤) في (ط) : واخرج ، وفي (د) : طرح .

جهل محض، هو سبب حرمانه الفائدة التي هي مطلبه، وتحتم تعريفه ان قرب الجوار بين الزيف والجيد لا يجعل الجيد زيفاً، كما لا يجعل الزيت جيداً، فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل، لا يجعل الحق باطلاً، كما لا يجعل الباطل حقاً.

فهذا (مقدار) (١) ما اردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها.

---

(١) سقط من (د).

٣ ــ مذهب التعليم[١] وعائلته

ثم اني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزيف منه ، علمت ان ذلك أيضـاً غير واف بكمال الغرض ، وان العقل ليس مستقلاً بالاحاطة بجميع المطالب ،

....

(١) مذهب التعليم ، ويدعى الباطنية : وهو عقيدة احدى الفرق التي تنسب نفسها الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، ولذلك يسمون انفسهم « الاسماعيلية » . كان بدء ظهوره دينيا محضا فقرر : « ان لكل ظاهر باطنا ، ولكل شرع تأويلا » . وقد عرف باسماء عديدة ، منها : القرامطة ، والمزدكية ، والملحدة . وقد خلط القدماء منهم كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على ذلك المنهاج . ومن جملة ما قالوا في الله تعالى : « انا لا نقول هو موجود ، ولا لا موجود ، ولا عالم ولا جاهل ... »
(أهـ ، ملخصا عن الملل والنحل للشهرستاني)

هذه بعض عقائدهم الدينية التي كانت منشأ هذه الفرقة ، الا انها بدأت بعد ذلك تأخذ صبغة سياسية ، واخذ اصحابها يتحدون الخلق بالامام المعصوم وقد فطن نظام الملك الى ما يتهدد مركز الخلافة من جراء هذه التعاليم ، واخصها من الوجهة السياسية فكرة الامام المعصوم ، فرغب الى الغزالي بالرد عليهم . وقد ذكر الغزالي ذلك ولم يناقشهم في هذا الفصل الا في فكرة الامام المعصوم .

(راجع زيادة الايضاح عن تاريخ هذه الفرقة : كتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادي ص ٢٦٠ وما بعدها)

ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات . وكان قـد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحدثهم(١) بمعرفة معنى الامور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق ، فعنّ لي أن أبحث في مقالاتهم ، لأطلع على ما في كنانتهم (٢) . ثم اتفق ان ورد عليّ أمر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف كتـاب يكشف [عن] حقيقة مذهبهم . فلم يسعني مدافعته ، وصار ذلك مستحثـاً من خارج ، ضميمة للباعث الأصلي مـن الباطن ، فابتدأت (٣) بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم . وكان قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولدتها خواطر أهل العصر ، لا على المنهاج المعهود من سلفهم . فجمعت تلك الكلمات ، (ورتبتها) (٤) ترتيباً محكماً مقارنا للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنها ، حتى أنكر بعض أهل الحـق (مني) مبالغتي في تقرير حجتهم ، فقال : « هذا سعي لهم ، فانهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها ، وترتيبك إياها » . وهذا الانكار من وجه حق ، فقد أنكر أحمد بن حنبل (٥) على الحارث

....

(١) في (ع،د) : تحديهم .
(٢) في (ط،ع) : كتبهم .
(٣) في (ط،د) : فانتدبت
(٤) سقط من (د) .
(٥) احمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ) احد الائمة الاربعة ، عرف بمعارضته للمعتزلة في قولهم بخلق القرآن فعذب ايام المأمون .

المحاسبي (رحمهما الله) تصنيفه في الرد على المعتزلة ؛ فقال الحارث : « الرد على البدعة فرض » فقال أحمد : « نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولا ثم اجبت عنها ؛ فيم تأمن ان يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب أو ينظر في الجواب ولا يفهم كنهه ؟ » .

وما ذكره احمد بن حنبـــل حق ، ولكن في شبهة (لم تنتشر) (١) ولم تشتهر فأما اذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب [عنها] إلا بعد الحكاية . نعم ، ينبغي ان لا يتكلف لهم شبهة لم « يتكلفوها » (٢) ؛ ولم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إلي ، بعد ان كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى انهم يضحكون على تصانيف المصنفين في الرد عليهم ، بأنهم لم يفهموا بعد حجتهم . ثم ذكر تلك الحجة وحكاها عنهم ، فلم أرض لنفسي ان يظن في الغفلة عن أصل حجتهم ، فلذلك اوردتها ، ولا ان يظن بي اني - وان سمعتها - لم افهمها ، فلذلك قررتها .

والمقصود ، اني قررت شبهتهم الى اقصى الامكان ثم اظهرت فسادها [بغاية البرهان] .

والحاصل : أنه لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم .

....

(١) سقط من (د)
(٢) في (ط،ع) : لم يتكلف ايرادها .

ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة ـ مع ضعفها ـ الى هذه الدرجـــة ؛ ولكن شدة التعصب دعت الذابين عن الحق الى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم ، والى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به ، فجاحدوهم في دعواهم : « الحاجة إلى التعليم والمعلم . » ، وفي دعواهم أنـــه : « لا يصلح كل معلم ، بل لا بد من معلم معصوم . » وظهرت حجتهم في اظهار الحاجة الى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين في مقابلته ، فاغتر بذلك جماعة وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه ؛ بـــل الصواب الاعتراف بالحاجة الى المعلم (١) ، وانه لا بد وأن يكون (المعلم) معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم (هو) محمـــد ﷺ فإذا قالوا : « هـــو ميت » فنقول : « ومعلمكم غائب . » ، فإذا قالوا : « معلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو اشكل عليهم مشكل . » فنقول : « ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد واكمل التعليم اذ قال الله تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم [واتممت عليكم نعمتي] (٢) » . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته .

---

(١) في (د) : التعلم .
(٢) سورة « المائدة » الاية ٤

فبقي قولهم : « كيف تحكمون في مـــا لم تسمعوه ؟ أبالنص ولم تسمعوه ، أم بالاجتهاد والرأي وهو مظنة الخلاف ؟ » فنقول : نفعل ما فعله معاذ (١) أذ بعثه رسول الله عليه السلام الى اليمن : أن نحكم بالنص عند وجوه النص ، وبالاجتهاد عند عدمه . (بل) كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام الى اقاصي البلاد (٢) ، اذ لا يمكنه ان يحكم بالنص (٣) ، فان النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهيـــة ، ولا يمكنه الرجوع في كل واقعة الى بلدة الإمام ، والى ان يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتي قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع . فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق الا ان يصلي بالاجتهاد ، اذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، فيفوت وقت الصلاة . فإذن ، جازت الصلاة الى غير القبلة بناء على الظن . ويقال : « ان المخطى » في الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران » فكذلك في جميع المجتهدات ، وكذلك أمر صرف الزكاة الى الفقير ، فربما يظنه فقيراً

....

(١) معاذ بن جبل : (١٧ ق٠هـ ــ ١٧ هـ) يشير الغزالي الى الحوار الذي دار بينه وبين النبي عليه السلام قبل ان يبعثه الى الـــى اليمن قاضيا فقد سأله الرسول : « بم تقضي يا معاذ ؟ » فقال : « بما في كتاب الله ٠ » قال « فان لم تجد ؟ » قال « بما في سنة رسول الله » قال « فان لم تجد ؟ » قال « اجتهد رأيي » فقـــال رسول الله : « الحمدلله الذي وفق رسول الله لمـــا يحب رسول الله ٠ »

(٢) في (ع،د) : الشرق ٠

(٣) في (ط،ع) : اذ لا يمكنهم ان يحكموا بالنص ٠

باجتهاده وهو غني باطناً بإخفائه ماله ، فلا يكون مؤاخذاً به وان أخطأ (١) ، لأنه لم يؤاخذ إلا بموجب ظنه . فإن قال : « ظن مخالفه كظنه . » فأقول : « هو مأمور باتباع ظن نفسه ، كالمجتهد في القبلة يتبع ظنه وان خالفه غيره . » فإن قال : « فالمقلد يتبع أبا حنيفة (٢) والشافعي (٣) (رحمهما الله) أم غيرهما » فأقول : « فالمقلد في القبلة عند الاشتباه ، إذا اختلف عليه المجتهدون ، كيف يصنع ؟ » فسيقول : « له مع نفسه اجتهاد في معرفة الأفضل الأعلم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الاجتهاد ؛ فكذلك في المذاهب . »

فرد الخلق إلى الاجتهاد ضرورة ـ الأنبياء والأئمة مع

....

(١) في (ط،ع) : ولا يكون هو مؤاخذا به وان اخطأ .

(٢) ابو حنيفة النعمان : (٨٠ ـ ١٥٠ هـ) هو الامام الاعظم ، صاحب المذهب المقضي به الان في اكثر الممالك الاسلامية . فارسي الاصل نشأ بالكوفة وعاصر بعض الصحابة واشتغل بالفقه واستنبط فقهه من القرآن الكريم . رضي ان يعيش تاجر خز ورغب عن وظائف الملوك والخلفاء ، وعرض عليه القضاء ايام خلفاء بني امية ثم ايام المنصور فابى ، فسجنه وآذاه .

(٣) الشافعي : (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ) ولد بغزة من بلاد الشام : انبغ من انتجت قريش بعد عصر الصحابة . كان واسع العلم بالكتاب والسنة وكلام الصحابة وآثارهم واختلاف آراء العلماء ، ضليعا بكلام العرب واللغة العربية والشعر . وهو مستنبط علم اصول الفقه وواضعه . اشهر مصنفاته كتاب « الام » في الفقه مطبوع في ٧ مجلدات .

العلم بأنهم (قد) (١) يخطئون ، بل قال رسول الله ﷺ : « أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر (٢) . » اي انا احكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطأوا فيه . ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ للانبياء في مثل هذه المجتهدات فكيف يطمع (٣) في ذلك ؟

ولهم ههنا سؤالان : احدهما قولهم هذا وإن صح في المجتهدات فلا يصح في قواعد العقائد ، اذ المخطىء فيه غير معذور ، فكيف السبيل اليه ؟ فأقول : « قواعد العقائد ، (٤) يشتمل عليها الكتاب والسنة ؛ وما وراء ذلك من التفصيل ، والمتنازع فيه ، يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم . وهي الموازين التي ذكرها الله (تعالى) (٥) كتابه ، وهي خمسة ذكرتها في كتاب القسطاس المستقيم . » فإن قال : « خصومك يخالفونك في ذلك الميزان . » فأقول : ولا يتصور ان يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه ، [اذ لا يخالف فيه] أهل التعليم ، لأني استخرجته من القرآن وتعلمته منه ، ولا يخالف فيه إهل المنطق ، لأنه موافق لما شرطوه في المنطق وغير

....

(١) سقط من (د) .
(٢) لا وجود لهذا القول في كتب الحديث . وجزم العراقي المحدث بانه لا اصل له ، وكذلك انكره المزني وغيره وان ذكره الفقهاء في كتبهم .
(٣) في (ط،ع) : نطمع .
(٤) سقط من (د) .
(٥) سقط من (د) .

مخالف له ؛ ولا يخالف فيه المتكلم لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات ، وبه يعرف الحق في الكلاميات . » فإن قال : « فإن كان في يدك مثل هذا الميزان فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق ؟ » ، فأقول : « لو أصغوا إلي لرفعت الخلاف بينهم ؛ وذكرت طريق رفع الخلاف في كتاب « القسطاس المستقيم » فتأمله لتعلم انه حق وانه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا ولا يصغون [اليه] بأجمعهم ! بل قد أصغى إلي طائفة ، فرفعت الخلاف بينهم . وامامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم ، فلمَ لم يرفع الى الآن ؟ ولمَ لم يرفع علي رضي الله عنه وهو رأس الأئمة ؟ او يدعي انه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلمَ لم يحملهم الى الآن ؟ ولأي يوم أجله ؟ وهل حصل بين الخلق بسبب دعوته الى زيادة خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! كان يخشى من الخلاف نوع الضرر لا ينتهي الى سفك الدماء ، وتخريب البلاد وايتام الاولاد ، وقطع الطرق (١) ، والإغارة على الاموال . وقد حدث في العالم من بركات رفعكم الخلاف [من الخلاف] ما لم يكن بمثله عهد . فإن قال : « ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة ، والاختلافات المتقابلة ، لم يلزمه الإصغاء اليك دون

---

(١) في (د) : الطريق .

خصمك ، وأكثر الخصوم يخالفونك ، ولا فرق بينك وبينهم . »
وهذا هو سؤالهم الثاني ، فأقول : وهذا أولا ينقلب عليك ، فإنك اذا دعوت هذا المتحير الى نفسك فيقول المتحير ، بم صرت أولى من مخاليفك ، وأكثر أهل العلم يخالفونك ؟ فليت شعري ! بماذا تجيب ؟ اتجيب بأن تقول : امامي منصوص عليه ؟ فمن (١) يصدقك في دعوى النص ، وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وانما يسمع دعواك مع تطابق اهل العلم على اختراعك وتكذيبك . ثم هب أنه سلم لك النص ، فإن كان متحير في أصل النبوة ، فقال : هب ان امامك يدلي بمعجزة عيسى عليه السلام فيقول : الدليل على صدقي اني أحيي أباك ، فأحياه ، فناطقني بأنه محق ، فبماذا اعلم صدقه؟ ولم يعلم كافة الخلق صدق عيسى عليه /بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشكلة ما لا يدفع الا بدقيق النظر العقلي ؛ والنظر العقلي لا يوثق به عندك ، ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف السحر والتمييز بينه وبين المعجزة ، وما لم يعرف أن الله لا يضل عباده . ـ وسؤال الإضلال وعسر [تحرير] الجواب عنه مشهور ـ فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكن امامك أولى بالمتابعة من مخالفه ! فيرجع الى الادلة النظرية التي ينكرها ، وخصمه يدلي بمثل تلك الأدلة وأوضح منها . وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً

....

(١) في (ط) و (ع) و (د) : فمتى .

عظيماً ، لو اجتمع اولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جواباً لم يقدروا عليه .

وانما نشأ الفساد من جماعـــة من الضعفة ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب ، بل بالجواب . وذلك مما يطول فيه الكلام ، وما لا يسبق سريعاً الى الافهام ، فلا يصلح للافحام . فإن قال قائل : « فهذا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟ » فأقول . «نعم ! جوابه أن المتحير لو قال : انا متحير ولم يعين المسألة التي هو متحير فيها ، يقال له : انت كمريض ، يقـــول : انا مريض ولا يعين مرضه (١) ويطلب علاجه . » فيقال له « ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين : من صداع او اسهال او غيرهما. » فكذلك المتحير ينبغي أن يعين ما هو متحير فيـــه ؛ فإن عين المسألة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة ، التي لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق ، الذي يوثق بكل ما يوزن به ، فيفهم الميزان ، ويفهم منه أيضاً صحة الوزن (٢) ، كما يفهـــم متعلم علم الحساب ، نفس الحساب ، وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب وصادقاً فيه . وقـد اوضحت ذلك في كتاب « القسطاس المستقيم » في مقدار عشرين ورقة ؛ فليتأمل .

....

(١) في (ط،ع) : ولا يذكر عين مرضه .

(٢) في (ط،ع) : ويفهم ايضا من صحة الوزن .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك في كتاب « المستظهري » اولا ؛ وفي كتاب « حجة الحق » ، ثانياً وهو جواب كلام لهم عرض علي ببغدادي، وفي كتاب «مفصل الخلاف» الذي هو اثنا عشر فصلاً ، ثالثاًوهو جواب كلام عرض علي بهمدان؛ وفي كتاب « الدرج » المرقوم « بالجداول »رابعاً ، وهومن ركيك كلامهم الذي عرض علي بطوس ؛ وفي كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتاب مستقل مقصوده بيان ميزان العلوم واظهار الاستغناء عن الإمام [المعصوم] لمن أحاط به .

بل المقصود أن هؤلاء ، ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء ، بل هم مع عجزهم عن اقامة البرهان على تعين الإمام، طال ما جاريناهم (١) فصدقناهم في الحاجة الى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم ، وانه الذي عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم وعرضنا عليهم اشكالات فلم يفهموها ، فضلا عن القيام بحلها ! فلما عجزوا احالوا [على] الإمام الغائب ، وقالوا : « (انه) لا بد من السفر اليه . » والعجب انهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلا ، كالمتضمخ (٢) بالنجاسة ، يتعب في طلب الماء حتى اذا وجده لم يستعمله ، وبقي متضمخاً بالخبائث .

---

(١) في (ع٠ د) : طالما جربناهم ٠
(٢) التضمخ لا يكون لغة الا بالطيب ، وفي (د) : المضمخ ، الملطخ (هـ) ٠

ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئاً ركيك فلسفة فيثاغورس (١) وهو رجل من قدمـــاء الاوائل ، ومذهبه ارك مذاهب الفلسفة ، وقد رد عليه ارسطاطاليس ، بل استرك كلامه واسترذله ، وهو المحكى في كتاب « إخوان الصفا » وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب طول العمر في طلب (٢) العلم ثم يقنـع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث ، ويظن بأنـــه ظفر بأقصى مقاصد العلوم ! فهؤلاء أيضاً جربناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ؛ فرجع حاصلهم الى استدراج العوام ، وضعفاء العقول ببيـان الحاجة الى المعلم ، ومجـادلتهم في أنكارهم الحاجـة الى التعليم بكلام قوي مفحم ، حتى إذا ساعدهم على الحاجة الى المعلـم مساعد ، وقال : « هات علمه وأفدنا من تعليمه ! » وقف قال:

....

(١) فيثاغورس : احد فلاسفة الاغريق العظام الذين تركوا اثـــرا عظيما في العلوم الرياضية . اما فلسفته ـكما ذكرها ارسطوـ فانها تقوم على اساس واحد ، عنه تتفرع كل التفاصيل وهو : « ان العدد ماهية الاشياء ، وان الاشياء مصنوعة من العدد ». ويفسرها الفيثاغوريون انفسهم بعبارة اكثـر وضوحا وهـي قولهم : « ان الاشياء تفسر بالاعداد » . اما مولده ومماته فغير معلومين على الضبط ، والراجح انه عاش بين القرنين السادس والخامس ق.م.

(٢) في (ع) : تحصيل .

« الآن اذا سلمت لي هذا فاطلبه ، فانما غرضي هـذا القدر فقط . » اذ علم انه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عـن حل ادنى الاشكالات (١) ، بل عجز عن فهمه ، فضلا عـن جوابه .

فهذه حقيقة حـالهم فاخبرهم تقلهم (٢) فلما خبرناهم (٣) نفضنا اليد عنهم (ايضاً) .

....

(١) في (ع) : المشكلات .
(٢) تقلهم : تبغضهم ، من القلى وهو البغض . وهـذه الجملـة مقتبسة من الحديث الشريف : « اخبر تقله » .
(٣) في (د) : جربناهم .

٤ ـ طرق الصوفية

ثم اني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق **الصوفية** (١) وعلمت أن طريقتهم انما تتم بعلم وعمل ؛ وكان حاصل علومهم (٢) قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل (بها) الى تخلية القلب عن غير الله (تعالى) (٣) وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر علي من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من

....

(١) مصادر عن التصوف والصوفية :
١ ـ ابن الجوزي : نقد العلم والعلماء ص ١٧١ ـ ٤٠٤
٢ ـ الشعراني : الطبقات الكبرى ·
٣ ـ ابن خلدون : المقدمة ، فصل علم التصوف ·
٤ ـ عبد اللطيف الطيباوي : التصوف الاسلامي العربي ·
٥ ـ محمد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١ ص ١٠٩ ـ ٢٩٠
٦ ـ محمود البشبيشي : الفرق الاسلامية ·
٧ ـ محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام ص ٢٧٥ ـ ٢٩٠
٨ ـ Nicholson : Mystics of Islam, London 1914
٩ ـ Studies in Islamic Mysticism, Cambridge 1921
١٠ ـ Massignon : La passion d'Al-Hallaj

(٢) في (ع) : علمهم ، وفي (ط) : عملهم ·
(٣) سقط من (د) ·

مطالعة كتبهم مثل : « قوت القلوب » لأبي طـــالب المكي (١) (رحمه الله) ، وكتب « الحارث المحاسبي » (٢) ، والمتفرقـــات المأثورة عن « الجنيد (٣) » و « الشبلي ٤) » و « أبي يزيـــد

....

(١) ابو طالب المكي (؟ ــ ٣٨٨ هـ) كان صالحا مجتهدا في العبادة وله مصنفات في التوحيد . قيل : « ان رياضته الصوفية » كانت عظيمة جدا : اذ انــه هجـر الطعام زمانا ، واقتصـر على اكل الحشائش المباحة فاخضر جلده من كثرة تناولها!!! وقيل انه زار بغداد ، فلما وعظ الناس خلط في كلامه ، فتركوه وهجروه ،وقد حفظ عنه انه قال يومئذ : « ليس على المخلوقين اضـر مـــن الخالـق » .

اما كتابه « قوت القلوب » فقد قالوا : « انه لم يصنف في الاسلام مثله في دقائق الطريقة (اي الصوفية) ولمؤلفه كلام في هذه العلوم لم يسبق الى مثله » . ويمتاز قوت القلوب بحرص مؤلفه واحتياطه فيما يتعلق بمذاهب الصوفية ، وبجمال لغته . وقـد اختصـره السيد جمال الدين القاسمي ، ولا يزال مخطوطا في الخزانة القاسمية .

(٢) المحاسبي : (؟ ــ ٢٤٣ هـ) قيل انــه سمي بهـذا الاسم لكثرة محاسبته نفسه ، كان من أجل علماء زمانه ومن أكثرهم درايـة بعلوم الشريعة . وقد ذكر مترجموه انه ألف في هذه العـلوم (الحديث والفقه والكلام والتصوف) نحو مئتي كتاب !

(٣) الجنيد : (؟ ــ ٢٩٧ هـ) اصله من نهاوند ، ومولده ومنشؤه في العراق . تفقه على « ابي ثور » صاحب الامام الشافعي . وكان شيخ وقته وفريد عصره، وكلامه في الحقيقة مشهور مدون وهو في نظر الصوفية سيد علماء الاخرة على الاطلاق .

(٤) الشبلي : (٢٤٧ ــ ٣٣٤ هـ) خراساني الاصل ، بغدادي المولد والمنشأ . يرى المتتبع لاخباره وحوادثه في تراجم الصوفيـة ، كطبقات الشعراني وغيرها ، انه من اولئـك الزهاد النادرين الذين انقطعوا للعبادة والريـاضة . وكـان له في مجالسـه واحاديثه مع عشرائه ، ابناء طريقته ، طابع خاص ــ كما هي الحال في اعلام الصوفية .

البسطامي (١) » ، [قدس الله أرواحهم] وغيرهم من المشايخ (٢) ؛ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع . فظهر لي أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق (٣) والحال (٤) وتبدل الصفات . وكم من الفرق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان ؟ وبين أن تعرف حد السكر ، وانه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء الأبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين ان تكون سكران ! بل السكران لا يعرف حد السكر ؛ وعلمه وهو سكران وما معه من علمه

....

(١) ابو يزيد البسطامي : (؟ ــ ٢٦٤ هـ) كان جده مجوسيا ثم اسلم ، وقد سئل : « بأي شيء وجدت هذه المعرفة ؟ » ، قال: « ببطن جائع وبدن عار » وكان يقول : « لو نظرتم الى رجل اعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدرنه عند الامر والنهي ، وحفظ الحدود ، واداء الشريعة. » ، وقد عرفت له مقالات كثيرة ومجاهدات مشهورة.

(٢) في ط : وغيرهم من المشايخ .

(٣) الذوق في معرفة الله : عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب اوليائه ، فيفرقون بواسطته بين الحق والباطل، دون ان يعتمدوا في ذلك التفريق على كتاب او غيره .

(٤) الحال عند المتصوفة : معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب ، من طرب او حزن ، او قبض او بسط ويزال الحال بظهور صفات النفس ، فاذا دام وصار ملكا يسمى مقاما ، فالاحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، فالاولى تأتي من عين الجود ، والثانية ببذل المجهود .

شيء ! والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معـه من السكر شيء . والطبيب في حالة المرض يعرف حدالصحة واسبابهاوادويتها، وهو فاقد الصحة . فكذلك فرق بين ان تعرف حقيقة الزهـد وشروطه (١) واسبابه ، وبين ان تكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا !

فعلمت يقيناً انهم ارباب الأحوال ، لا اصحاب الأقوال . وان ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق الا ما لا سبيـل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك (٢) . وكان (قـد) حصل معي ــ من العلوم التي مارستها والمسالـك التي سلكتهـا ، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية ــ ايمان يقيني بالله تعالى، وبالنبوة ، وباليوم الآخر .

فهذه الأصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسي ، لا

....

(١) في (ط ، ع) : وشروطها واسبابها . الزهد لغة : هو الاعراض عن الشيء ، تقول زهدت فيه وعنه ، اي اعرضت . واصطلاحا: هو الاعراض عن الدنيا .

والفرق بين الزهد والتصوف : هو ان الزهـد عام عند جميع الامم ، وقد عرفه اليونان قديمـا في تعـاليم الفلاسفة الرواقيين ، ولا غاية للزاهد غير الابتعـاد عن اللـذات . اما التصوف فلم يعرف عند كل الامم ، وغايته ابعد وطريقه اعقد، فهو والزهد مـن حيث بعض المظاهر متفقان ، الا ان الرياضات التي يقوم بها المتصوف لا يفقه الزاهد لها معنى .

(٢) السالك ، هو الذي مشى على المقامات بحاله ، لا بعلمه ، ومنه السلوك .

بدليل معين محرر (١) ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع (لي) في سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله ، قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافي (٢) عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى . وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت احوالي ، فإذا انا منغمس في العلائق ، وقد احدقت بي من الجوانب ، ولاحظت اعمالي ــ واحسنها التدريس والتعليم ــ فإذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولانافعة في طريق الآخرة .

ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فاذا هي غير صالحة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ؛ فتيقنت اني على شفا جرف هار ، واني قد اشفيت على النار ، ان لم اشتغل بتلافي الأحوال .

....

(١) في (ع، د) : مجرد .
(٢) في (د) : والتجافي .

فلم ازل اتفكر فيه مدة ؛ وانا ، بعد ، على مقام الاختيار ، اصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، واحل العزم يوماً ، واقدم فيه رجلًا واؤخر عنه اخرى . لا تصدق (١) لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، الاويحمل عليها(٢) جند الشهوة حملة فيفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام ، ومنادي الايمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر الا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما انت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ! فان لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ وان لم تقطع الآن (هذه العلائق) فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار !

ثم يعود الشيطان ويقول : « هذه حال عارضة ، اياك ان تطاوعها ، فانها سريعة الزوال ؛ فان اذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمر (٣) المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت اليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة » .

....

(١) في (ع) : تصفو .
(٢) في (ع) : ويحمل عليه .
(٣) في (ط، ع) : والامن .

فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا،ودواعي الآخرة(١) ، قريباً من ستة اشهر اولها رجب سنة ثمان وثمانين واربع مائة (٢) ؛ وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ اقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت اجاهد نفسي ان ادرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة [الي] ، فكان لا ينطق (٣) لساني بكلمة [واحدة] ولا استطيعها البتة،حتى (٤) اورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة (٥) الطعام والشراب : فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم لي (لقمة) ؛ وتعدى الى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا : « هذا امر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بأن يتروح السر عن الهم الملم » .

ثم لما احسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي « يجيب المضطر اذا دعاه (٦) ، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال

---

(١) في (ط) : الدين ٠
(٢) في (ط) : ست وثمانين واربعمئة ٠
(٣) في (ط) : ينطلق ٠ (٤) في (د، ع) : ثم ٠
(٥) في (د، ع) : قرم ، وفي (ط) : « مرأ » اما الاولى فغير صحيحة لغة ، واما الثانية فلا وجود لها في معاجم اللغة ، ولعلها مراءة وهي الهناء ٠
(٦) قرآن كريم : سورة النمل الاية ٦٢ ٠

(والأهل والولد والأصحاب) ، واظهرت عزم الخروج الى مكة وانا ادبر (١) في نفسي سفر الشام حذواً ان يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي على المقام في الشام ؛ فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم ان لا اعاودها ابداً . واستهدفت لأئمة اهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوز ان يكون للاعراض عما كنت فيه سبب ديني (٢) ؛ اذ ظنوا ان ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ؛ (وأما من قرب من الولاة) (٣) فكان يشاهد الحاحهم في التعلق بي والانكباب عليّ ، واعراضي عنهم ، وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : « هذا أمر سماوي ، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة أهل العلم (٤) » .

ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معي من المال ، ولم ادخر الا قدر الكفاف ، وقوت الاطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح، لكونه وقفاً على المسلمين . فلم أرى في العالم مالاً

....

(١) في (د، ع) : اوري .
(٢) في (ط، ع) : الاعراض عما كنت فيه سببا دينيا .
(٣) سقط من (د) .
(٤) في (ط) : العالم .

يأخذه العالم لعياله اصلح منه .

ثم دخلت الشام ، واقمت به قريباً من سنتين لا شغل إلي إلا العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة (١) ، إشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الاخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله (تعالى) (٢) ، كما كنت حصلته من كتب (٣) الصوفية . فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه ؛ فسرت الى الحجاز .

ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الاطفال الى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه . فآثرت العزلة [به] ايضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهات العيال ، وضرورات

---

(١) المجاهدة : حمل النفس على كل حال .
(٢) سقط من (د).
(٣) في (ط، ع) : علم .

المعاش (١) ، تغيّر فيّ وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو [لي] الحـال إلا في أوقات متفرقـة . لكنني مع ذلك لا اقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، واعود اليهـا .

ودمت على ذلك مقـدار عشر سنـين ؛ وانكشفت لي في اثناء هذه الخلوات امور لا يمكن احصاؤها واستقصـاؤها ؛ والقدر الذي اذكره لينتفع به : اني علمت يقيناً ان الصوفية هم السالكون لطريق الله (تعالى) خاصة ، وان سيرتهم احسن السير ، وطريقهم اصوب الطرق ، واخلاقهم ازكى الاخلاق . بل لو جُمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم واخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً . فان جميـع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من (نور) مشكاة النبوة ؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به .

وبالجملة ، فماذا (٢) يقول القائلون في طريقـة ، طهارتهـا ــ وهي اول شروطها ــ تطهير القلب بالكلية عمـا سوى الله

....

(١) في (د) : المعيشة ·　　(٢) في (د) : ماذا ·

(تعالى) (١) ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة (٢) ، استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ؟ وهذا آخرها بالاضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من اوائلها . وهي على التحقيق اول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه .

ومن اول الطريقة تبتدىء المكاشفات (والمشاهدات) ، حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وارواح الانبياء ويسمعون منهم اصواتاً ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال ، الى درجات يضيق عنها نطلق النطق ، فلا يحاول معبر ان يعبر عنها الا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة . ينتهي الامر الى قرب ، يكاد يتخيل منه

....

(١) سقط من (د) .
(٢) يريد الغزالي ان يقول : كما ان اول شرط للصلاة هو طهارة الجسد والمكان الذي لا تصح الصلاة الا به ، وكذلك اول شرط في الطريقة طهارة القلب . ثم ان مفتاح الصلاة هو تكبيرة التحريم التي تبدأ بها فتحرم على المصلي كل شيء ، وكذلك مفتاح الطريقة استغراق القلب بالكلية بذكر الله .

طائفة الحلول (١) ، وطائفة الاتحاد (٢) وطائفة الوصول (٣) ، وكل ذلك خطأ . وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب « المقصد الاسنى (٤) ؛ بل الذي لابسته (٥) تلك الحالة لا ينبغي ان يزيد على ان يقول :

وكان ما كان مما لست اذكره
فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر ! (٦)

وبالجملة ، فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق ، فليس يدرك من

....

(١) الحلول : هو ان يكون الشيء حاصلا في الشيء ومختصا به بحيث تكون الاشارة الى احدهما اشارة الى الاخر تحقيقا او تقديرا . (كليات ابي البقاء)
وحلول شيء في شيء : هو ان يكون وجوده في نفسه هو بعينه وجوده لذلك الشيء . ويريد المتصوفة به ان الله تعالى يحل في العارفين .
(ا هـ. ملخصا عن كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي)

(٢) الاتحاد ، في الاصل : امتزاج الشيئين واختلاطهما حتى يصيرا شيئا واحدا . وفي عرف الصوفية : الاتحاد هو شهود الحق واتحاده به ، من حيث كون كل شيء موجودا به ، معدوما بنفسه ، لا من حيث ان له وجودا خاصا اتحد به ، فانه محال.

(٣) لم نعثر على تعريف اصطلاحي للوصول في الكتب المعروفة ، ولعل الغزالي يريد بها الاتصال بواجب الوجود .

(٤) في (ع) و (ط) : المقصد الاقصى ، لم نعثر على كتاب بهذا الاسم للغزالي ونرجح انه الكتاب المطبوع باسم المقصد الاسني في شرح اسماء الله الحسنى، اذ ان البحث المشار اليه هنا موجود في ص ١٢٢ (مطبعة التقدم ، ١٣٢٢ هـ) .

(٥) في (د) : زايلته ، وفي الذيل : نازلته .

(٦) هذا البيت لابن المعتز .

حقيقة النبوة الا الاسم ، وكرامات الاولياء ، [هي] على التحقيق ، بدايات الانبياء . وكان ذلك اول حال رسول الله ﷺ حين اقبل (١) الى جبل « حراء » (٢) ، حيث (٣) كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : « ان محمداً عشق ربه ! » .

وهذه الحالة ، يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها . فمن لم يرزق الذوق ، فيتيقنها بالتجربة والتسامع ، ان اكثر معهم الصحبة ، حتى يفهم ذلك بقرائن الاحوال يقيناً . ومن جالسهم ، استفاد منهم هذا الايمان . فهم القوم لا يشقى جليسهم . ومن لم يرزق صحبتهم ، فليعلم امكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه في كتاب « عجائب القلب » من كتب « احياء علوم الدين (٤) » .

والتحقيق بالبرهان علم ، وملابسه عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن ايمان .

....

(١) في (ط) : حيث تبتل .
(٢) حراء : جبل من جبال مكة ، وهو على ثلاثة اميال منها . كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعبد في غار منه قبل أن يأتيه الوحي ، وفي هذا الغار اتاه جبريل بالرسالة العظمى التي غيرت وجه التاريخ ودفعت البشرية الى الغاية المثلى .
(٣) في جميع النسخ : حين .
(٤) في (د) : الاحياء .

فهذه ثلاث درجات : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذي اوتوا العلم درجات (١) » .

ووراء هؤلاء قوم جهال ، هم المنكرون لاصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام ، يستمعون ويسحرون ، ويقولون : العجب ! انهم كيف يهذون ! وفيهم قال الله تعالى : « ومنهم من يستمع اليك ، حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً ، اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم (٢) » (فأصمهم واعمى ابصارهم) .

ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم ، « **حقيقة النبوة وخاصيتها** » .

ولا بد من التنويه على اصلها لشدة مسيس الحاجة اليها .

....

(١) قرآن كريم : « سورة المجادلة » الاية ١١ .
(٢) قرآن كريم « سورة محمد » الاية ١٦ .

حقيقة النبوة

واضطرار كافة الخلق اليها

اعلم : أن جوهر الانسان في اصل (١) الفطرة ، خلق خالياً ساذجاً لا خبر معه من عوالم الله (تعالى) ، والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى ، كما قال : « وما يعلم جنود ربك الا هو (٢) » وانما خبره من العوالم (٣) بواسطة الادراك ، وكل ادراك من الادراكات خلق ليطلع الانسان به على عالم من الموجودات ؛ ونعني بالعوالم ، أجناس الموجودات .

فأول ما يخلق في الانسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واللين والخشونة ، وغيرها . واللمس قاصر عن الالوان والاصوات قطعاً ، بل هي كالمعدوم في حق اللمس .

---

(١) في (د) : اول .
(٢) سقط من (د) .
(٣) سورة « المدثر » الاية ٣١ .

ثم تخلق له [حاسة] (١) **البصر** ، فيدرك بها الالوان والاشكال ، وهو اوسع عالم المحسوسات .

ثم ينفخ فيه (٢) **السمع** ، فيسمع الاصوات والنغمات .

ثم يخلق له **الذوق** . وكذلك الى ان يجاوز عالم المحسوسات ، فيخلق فيه التمييز ، وهو قريب من سبع سنين ، وهو طوراً آخر من أطوار وجوده : فيدرك فيه اموراً زائدة على (عالم) (٣) المحسوسات ، لا يوجد متها شيء في عالم الحس .

ثم يترقى الى طور آخر ، فيخلق له العقل ، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات ، واموراً لا توجد في الاطوار التي قبله .

ووراء العقل طوراً آخر تتفتح فيه عين اخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل ، واموراً أخر ، العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز من ادراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز . وكما ان المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها : وذلك عين الجهل : إذ لا

(١) سقط من (د) .
(٢) في (د، ع) : ينفتح له .
(٣) سقط من (د) .

مستند لهم الا انه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه ، فيظن انه غير موجود في نفسه . والاكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الالوان والأشكال ، وحكي له ذلك ابتداء ؛ لم يفهمها ولم يقربها . وقد قرب الله تعالى على خلقه بأن اعطاهم نموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم : إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، اما صريحاً واما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الانسان من نفسه — وقيل له : « ان من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ، ويزول (عنه) (١) إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب . » — لانكره ، واقام البرهان على استحالته وقال : « القوى الحساسة اسباب الادراك ، فمن لا يدرك الاشياء (٢) مع وجودها وحضورها ؛ فبأن لا يدرك مع ركودها أولى واحق . وهذا نوع قياسي يكذبه الوجود والمشاهدة . فكما ان العقل طور من اطوار الآدمي ، يحصل فيه عين يبصر بها انواعاً من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة ايضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب ؛ وامور لا يدركها العقل .

والشك في النبوة ، اما ان يقع : في امكانها ، او في

....

(١) سقط من (د) .
(٢) في (د) : الشيء .

وجودها ووقوعها ، او في حصولها لشخص معين .

ودليل امكانها ووجودها . ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور ان تنال بالعقل ، كعلم الطب والنجوم؛ فان من بحث عنها علم بالضرورة انها لا تدرك الا بإلهام الهي وتوفيق من جهة الله (تعالى) (١) ، ولا سبيل اليها بالتجربة فمن الاحكام النجومية ما لا يقع إلا في كل الف بسنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ؟ وكذلك خواص الادوية فتبين بهذا البرهان ، ان في الامكان وجود طريق لادراك هذه الامور التي لا يدركها العقل ؛ وهو المراد بالنبوة ، لا ان النبوة عبارة عنها فقط ، بل ادراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل احدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها . وما ذكرنا فقطرة من بحرها ؛ إنما ذكرناها لان معك نموذجا منها ، وهو مدركاتك في النوم ، ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم ، وهي معجزات الانبياء (عليهم الصلاة والسلام) ، ولا سبيل اليها للعقلاء ببضاعة العقل اصلا .

واما ما عدا هذا من خواص النبوة ، فإنما يدرك بالذوق ، من سلوك طريق **التصوف** ، لان هذا انما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ، ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبي خاصة (٢) ليس لك منها انموذج ، ولا تفهمها اصلا ، فكيف تصدق بها ؟ وانما (٣) التصديق بعد الفهم : وذلك الانموذج

....

(١) سقط من (د) . (٢) في (د) : خاصية .

(٣) في (د) وانما خاصة النبوة التصديق بعد التفهم .

يحصل في اوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس (اليه) فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للايمان بأصل النبوة .

فإن وقع لك الشك في شخص معين ، أنه نبي ام لا ، فلا يحصل اليقين الا بمعرفة احواله ، اما بالمشاهدة ، او بالتواتر والتسامع ، فانك اذا عرفت الطب والفقه ، يمكنك ان تعرف الفقهاء والاطباء بمشاهدة أحوالهم ، وسماع اقوالهم ؛ وان لم تشاهدهم ، ولا تعجز ايضاً عن معرفة كون الشافعي (١) (رحمه الله) (٢) فقيهاً ، وكون جالينوس (٣) طبيباً ، معرفة بالحقيقة

....

(١) راجع ص ٨٩ حاشية «٥» ٠

(٢) سقط من (د) ٠

(٣) جالينوس : (١٣١ ـ ٢١٠ ق٠م٠) طبيب اغريقي عظيم ، بقي اسمه علما في عالم الطب الى هذا العصر ٠ ظهر في حقبةكان الطب فيها في ايدي السفسطائيين الدجالين ، فاحيا طب ابيقراط ، فكانت له بذلك شهرة عظيمة في عصره ، وهو كاكثر الاطباء الاقدمين عني بدراسة الفلسفة ٠ فلما تعمق فيها ، بدا له ان يؤلف ، فشرح كل مؤلفات ارسطو ، ثم اكب على دراسة الطب ٠

كانت مؤلفاته شبيهة بموسوعات في الطب النظري والتشريح ، وقد سادت أراؤه في الطب حتى اوائل القرنالسابع عشر ٠

كان كاتبا خصبا ، الف في غير الطب ١٢٥ مؤلفا ، منها ١١٥ فلسفية ولكنها لم تصلنا اذ احترقت في اثناء حياته، والباقي الى يومنا هذا من كل مؤلفاته الطبية والرياضية والفلسفية ٧٠ مؤلفا ٠

اما فلسفته فمزيج مضطرب مليء بالمتناقضاتوالغموض٠ (عن دائرة المعارف الفرنسية باختصار)

لا بالتقليد عن الغير : [بل] بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم ضروري بحالهما . فكذلك اذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والاخبار ، يصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على اعلى درجات النبوة ، واعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق (ص) في قوله: « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم (١) » وكيف صدق في قوله : « من اعان ظالماً سلّطه الله عليه (٢) » وكيف صدق في قوله : « من اصبح وهمومه هم واحد كفاه الله (تعالى) (٣) هموم الدنيا والآخرة » ، فاذا جربت ذلك في الف والفين وآلاف ، حصل لك علم ضروري ولا تتمارى فيه .

فمن هذا الطريق اطلب اليقين بالنبوة ، لا من قلب العصا ثعباناً ، وشق القمر ، فان ذلك اذا نظرت اليه وحده ، ولم تنظم اليه القرائن الكثيرة الخارجة(٤) عن الحصر ، ربما ظننت انه سحر وتخييل ، وانه من الله تعالى إضلال فانه « يضل من يشاء ويهدي من يشاء . » (٥)

....

(١) لم نعثر في كتب الحديث الشهيرة على نص لهذا الحديث .
(٢) حديث ضعيف كما في الجامع الصغير ، رواه ابن عساكر عن
(٣) ابن مسعود .
سقط من (د) .
(٤) في (ط، ع) : الخارجية .
(٥) قرآن كريم « سورة فاطر » الاية ٨ .

وترد عليك اسئلة (١) المعجزات ، فاذا كان مستند ايمانك الى كلام منظوم (٢) في وجه دلالة المعجزة ، فينجزم ايمانك بكلام مرتب في وجه الاشكال والشبهة عليها ، فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين ، كالذي يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه ان يذكر ان اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لا يدري ، ولا يخرج عن جملة ذلك ولا بتعيين الآحاد . **فهذا هو الايمان القوي العلمي** .

وأما **الذوق** فهو كالمشاهدة والاخذ باليد ، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية .

فهذا القدر من حقيقة النبوة ، كاف في الغرض الذي اقصده الآن ، وسأذكر وجه الحاجة اليه . (٣)

(١) في (ع) : مسالة .
(٢) في (ط، ع) : فان كان مستندا ايمانك الى كلام منظوم .
(٣) في (د) : الى ذكره .

سبب نشر العلم

بعد الاعراض عنه

ثم اني لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين ، وبان لي في اثناء ذلك على الضرورة من اسباب لا أحصيها ، مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهاني ، ومرة بالقبول الايماني : أن الانسان خلق من بدن وقلب (١) ، وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة ، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ، وان القلب كذلك له صحة وسلامة ، ولا ينجو « إلا من أتى الله بقلب سليم (٢) » وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخروي ، كما قال تعالى : « في قلوبهم مرض (٣) » وان الجهل بالله سم مهلك ، وان معصية الله ، بمتابعة الهوى ، داؤه الممرض ، وان معرفة الله تعالى ترياقه المحيي ، وطاعته بمخالفة الهوى ، دواؤه الشافي ؛ وانه لا سبيل

....

(١) في (ط) : ان للانسان بدنا وقلبا .
(٢) قرآن كريم « سورة الشعراء » الاية ٨٩ .
(٣) « سورة البقرة » الاية ١٠ و « المائدة » الاية ٥٥ وغيرهما .

الى معالجته بازالة مرضه وكسب صحته ، إلا بأدوية ، كما لا سبيل الى معالجة البدن الا بذلك . وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها ، لا يدركها العقـــلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين اخذوها من الأنبياء ، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بان لي ، على الضرورة بأن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرهـــا المحدودة المقدرة من جهة الانبياء ، لا يــــدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء « بل يجب فيها تقليد الانبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل » . وكما ان الادوية تركب من (اخلاط مختلفة) النوع والمقدار وبعضهـا ضعف البعض في الوزن المقدار ، فلا يخـلو اختلاف مقاديرهـا عن سر هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبـادات التي هي ادوية داء القلوب ، مركبة من افعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى ان السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ؛ ولا يخـلو عن سر من الاسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها الا بنور النبوة . ولقد تحامق وتجاهل جداً من اراد ان يستنبط ، بطريق العقل ، لها حكمة او ظن انها ذكرت على الاتفاق ، لا عن سر إلهـي فيهـا ، يقتضيها بطريق الخاصية . وكمـــا ان في الادوية اصولاً هي اركانها ، وزوائد هي متمماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير

في اعمال اصولها ، كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : فالانبياء عليهم السلام اطباء امراض القلوب ، وانما فائدة العقل وتصرفه ، إن عرفنا ذلك ، وشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز (١) عن درك ما يدرك بعين النبوة ، واخـذ بأيدينا وسلمنا اليها) (٢) تسليم العميان الى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين الى الأطباء المشفقين . فالى ههنا مجرى العقل ومخطاه (٣) وهو معزول عما بعد ذلك ، الا عن تفهم ما يلقيه الطبيب اليه (٤) ..

فهذه امور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، في مدة الخلوة والعزلة .

ثم راينا فتور الاعتقادات في اصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلك بين

---

(١) في (ط، د) : العمى ٠
(٢) سقط من (د) ٠
(٣) في (ط) وعطاؤه ٠
(٤) يريد الغزالي ان يقول ان نطاق العقل محدود ٠ راجع جميل صليبا وكامل عياد : « ابن خلدون منتخبات : منتخبات » ص١٠ وما بعدها و ص ٤٧ وما بعدها ٠ (مكتب النشر العربي بدمشق) ٠

الخلق ؛ فنظرت الى اسباب فتور الخلق ، وضعف ايمانهم ، فاذا هي اربعة :

١ ـ سبب من الخائضين في علم الفلسفة .
٢ - وسبب من الخائضين في طريق التصوف .
٣ ـ وسبب من المنتسبين الى دعوى التعليم .
٤ ـ وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فاني تتبعت مدة آحاد الخلـق ، اسأل من ان يقصر منهم في متابعة الشرع (واسأله) (١) عن شبهته وابحث عن عقيدته وسره وقلت له : « مالك تقصر فيها فان كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فانك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟ وان كنت لا تؤمن ، فـأنت كافر ! فـدبر نفسك في طلب الايمـــان ؛ وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جراتك ظاهراً ، وان كنت لا تصرح به تجملاً بالايمان وتشرفاً بذكر الشراع ! »

فقائل يقول : « ان هذا امر لو وجبت المحـافظة عليه ،

....

(١) سقط من (د) .

لكان العلماء اجدر بذلك ، وفلان من المشاهير (١) بين الفضلاء لا يصلي ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل اموال الاوقاف واموال اليتامى . وفلان يأكل ادرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ! وهلم جرا الى امثاله .

وقائل ثان : يدعي (علم) (٢) التصوف ، ويزعم انه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة الى العبادة !

وقائل ثالث : يتعلل بشبهة اخرى من شبهات اهل الاباحة !

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقي اهل التعليم فيقول : « الحق مشكل ، والطريق متعسر (٣) والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب اولى من بعض ، وادلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي اهل الرأي ، والداعي الى التعليم متحكم لا حجة له ، فكيف ادع اليقين بالشك ؟ » .

وقائل خامس يقول : « لست افعل هذا تقليداً ، ولكنني قرأت علم الفلسفة وادركت حقيقة النبوة ، وان

....

(١) في (د) : المشهورين .
(٢) سقط من (د) .
(٣) في (ع) : منسد ، وفي (د) مسدود .

حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقيدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فما انا من العوام الجهال حتى ادخل في حجر التكليف ، وانما انا من الحكماء اتبع الحكمة وانا بصير بها ، مستغن فيها عن التقليد ! » .

هذا منتهى ايمان من قرأ (مذهب) (١) فلسفة الالهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وابي نصر الفارابي . وهؤلاء هم المتجملون بالاسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وانواعاً من الفسق والفجور ! وإذا قيل له : « إن كانت النبوة غير صحيحة ، فلمَ تصلي ؟ » فربما يقول : « لرياضة الجسد ، ولعادة اهل البلد ، وحفظ المال والولد ! » وربما قال : « الشريعة صحيحة ، والنبوة حق ! » فيقال : « فلمَ تشرب الخمر ؟ » فيقول : « انما نهي عن الخمر لانها تورث العداوة والبغضاء ، وانا بحكمتي محترز عن ذلك ، واني اقصد به تشحيذ خاطري . » حتى ان ابن سينا ذكر

....

(١) سقط من (د) (علم) هـ.

في وصية له كتب فيها : انه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وان يعظم الاوضاع الشرعية ، ولا يقصر في العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً بل تداوياً وتشافياً فكان منتهى حالته في صفاء الايمان ، والتزام العبادات ، ان استثني شرب الخمر لغرض التشافي (١) فهذا إيمان من يدعي الايمان منهم ، وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم انخداعاً ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، اذ اعترضوا بمجاهدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك مما هو ضروري لهم ، على ما بينّا علته من قبل (٢) .

فلما رأيت اصناف الخلق قد ضعف ايمانهم الى هذا الحد بهذه الاسباب ، ورأيت نفسي ملبة (٣) بكشف هذه الشبهة ، حتى كان افصاح (٤) هؤلاء ايسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي في علومهم [وطرقهم] ، اعني [طرق] الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء ، انقدح في نفسي ان ذلك متعين في هذا الوقت محتوم . فما تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الاطباء ، واشرف الخلق على الهلاك ! ثم قلت في نفسي : (متى تشتغل (٥)

---

(١) في (ط) و (ع) و (د) : التشفي وهو خطأ .
(٢) في (د، ع) : نبهنا عليه .
(٣) ألب على الامر : لزمه فلم يفارقه ، وفي طبعة احمد فريد رفاعي : مكبة .
(٤) في (د) : افحام .
(٥) في (ع) : تستقل .

انت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل) ¹) ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق ، عن طرقهم الى الحق ، لعاداك اهل الزمان بأجمعهم ، وانى تقاومهم « فكيف تعايشهم (٢) ، ولا يتم ذلك الا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ؟ .

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللا بالعجز عن إظهار الحق بالحجة . فقدر الله تعالى ان حرك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج . فأمر امر إلزام بالنهوض الى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الالزام حداً كان ينتهي ، لو اصررت على الخلاف ، الى حد الوحشة ، فخطر لي ان سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي ان يكون باعثك على ملازمة العزلة والكسل والاستراحة ، وطب عز النفس وصونها عن اذى الخلق ، ولم ترخص لنفسك عُسْرَ معاناة الخلق (٣) ، والله سبحانه وتعالى يقول : بسم الله الرحمن الرحيم (٤) . الم . احسِبَ الناسُ ان يُتركوا ان يقولوا آمنّا وهم لا يُفتَنون ؟ ولقَد فتنّا الذين من قبلهم (٥) » الآية . ويقول عز وجل لرسوله

....

(١) سقط من (د) .
(٢) في (ط، د) : وكيف تقاسيهم .
(٣) في (د): فلم ترخص نفسك بعسر معاناة الخلق وفي (ط، ع) : ولم ترخص نفسك لعسر معافاة الخلق .
(٤) سقط من (د) .
(٥) سور « العنكبوت » : الاية ١ .

وهو اعز خلقه : « ولقد كُذِّبَتْ رُسُل من قبلكَ فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا ، حتى اتاهم نصرُنا ؛ ولا مبدّلَ لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المُرسَلينَ (١) » . ويقول عز وجل بسم الله الرحمن الرحيم (٢) : « يس . والقرآن الحكيم » إلى قوله : « إنما تُنْذِرُ مَنْ اتّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشيَ الرحمن بالغيب (٣) » فشاورت في ذلك جماعة من ارباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الاشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية ؛ واتضاف الى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة (٤) فاستحكم الرجاء . وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات وقد وعد الله سبحانه باحياء دينه على رأس كل مائة ويسّر الله تعالى الحركة إلى نيسابور ، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين واربعمائة . وكان الخروج من بغداد سنة ثمان وثمانين واربع مائة ، وبلغت مدة العزلة احدى عشرة سنة . وهذه حركة قدرها الله تعالى ، (وهي) من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه العزلة (٥) ، كما لم يكن

....

(١) سقط من (د) « سورة الانعام » : الاية ٢٤ .
(٢) سقط من (د) .
(٣) سورة « يس » : الاية ١١ .
(٤) يشير الغزالي الى الحديث الشريف : ان الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها رواه ابو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة .
(٥) في (د) : مدة العزلة .

الخروج من بغداد ، والنزوع عن تلك الاحوال مما خطر (١) امكانه اصلا بالبال ، والله تعالى مقلب القلوب والاحوال و « قلب المؤمنين بين اصبعين من اصابع الرحمن (٢) وانا اعلم اني ، وان رجعت الى نشر العلم ، فما رجعت ! فان الرجوع عائد الى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان انشر العلم الذي به يكتسب الجاه ، وادعو اليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي . واما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتي وقصدي وامنيتي ؛ يعلم الله ذلك مني وانا ابغي ان اصلح نفسي وغيري ، ولست ادري أأصل الى مرادي ام احترم دون غرضي ؟ ولكني اؤمن ايمان يقين ومشاهدة انه لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم) (٣) واني لم اتحرك ، لكنه حركني ، واني لم اعمل ، لكنه استعملني ؛ فأسأله ان يصلحني اولا ، ثم يصلح بي ، ويهدني ؛ ثم يهدي بي ؛ وان يريني الحق حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلا ؛ ويرزقني اجتنابه .

●

....

(١) في (د) : يخطر .
(٢) جاء في ج ٢ ص ٣٠١ من « صحيح مسلم » : ان النبي عليه السلام قال : « ان قلوب بني آدم كلها بين اصبعين من اصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفه كيف شاء . » عن ابن عمرو .
(٣) سقط من (د) .

ونعود الآن إلى ما ذكرناه من اسباب ضعف الايمان بذكر طريق ارشادهم وانقاذهم من مهالكهم :

اما **الذين ادعوا الحيرة من أهل التعليم** فعلاجهم (١) ماذكرناه في كتاب « القسطاس المستقيم » ، ولا نطول بذكره (في) (٢) هذه الرسالة ،

واما ما توهمه اهل الاباحة ، فقد حصرنا شبههم في سبعة انواع وكشفناها في كتاب « كيمياء السعادة » .

واما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة ، حتى أنكر أصل النبوة ، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة، بدليل وجود (علم) (٣) خواص الادوية والنجوم وغيرهما . وانما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك . وانما اوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ، لأنه من نفس علمهم . ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم ، كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلا من نفس علمه ، برهان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ، وسوى أوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على التحقيق كافر بالنبوة ، وانما هو مؤمن بحكم (٤) له طالع مخصوص ، يقتضي طالعه ان يكون متبوعاً ، وليس هذا من النبوة في شيء ، بل الايمان بالنبوة :

....

(١) في (ط، ع) : فعلاجه .
(٢) سقط من (د) .
(٣) سقط من (د) .
(٤) في (د، ع) بحكيم .

ان يقر بإثبات طور وراء العقل ، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل البصر عن ادراك الالوان ؛ والسمع عن ادراك الاصوات ، وجميع الحواس عن ادراك المعقولات ، فإن لم يجوز هذا ، فقد اقمنا البرهان على امكانه ، بل على وجوده . وان جوز هذا ، فقد اثبت ، ان هنا اموراً تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حواليها اصلا ، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها . فان وزن دانق (١) من الافيون ، سم قاتل لأنه يجمد الدم في العروق لفرط برودته . والذي يدعي علم الطبيعة ، يزعم أن (٢) ما يبرد من المركبات ، انما يبرد بعنصري (٣) الماء والتراب فهما العنصران الباردان . ومعلوم ان ارطالا من الماء والتراب ، لا يبلغ تبريدها في الباطن إلى هذا الحد . فلو اخبر طبيعي بهذا ولم يجربه ، لقال : « هذا محال ؛ والدليل على استحالته ان فيه نارية وهوائية والهوائية والنارية لا تزيدها برودة ؛ فنقدر الكل ماء وترابا ، فلا يوجب هذا الافراط في التبريد ، فإن انضم إليه حاران فبأن لا يوجب ذلك اولى » ويقدر هذا برهاناً ! واكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والالهيات ، مبني على هذا الجنس ! فانهم تصوروا الامور على قدر ما وجدوه

....

(١) الدانق : سدس الدرهم .
(٢) في (ط) انه .
(٣) في (ط) : التي يغلب فيها عنصر .

وعقلوه ، وما لم يألفوه قدروا استحالته ، ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة ، وادعى مدع ، انه عند ركود الحواس ، يعلم الغيب ، لانكره المتصفون (١) بمثل هذه العقول . ولو قيل لواحد : « هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء ، هو بمقدار حبة يوضع في بلدة ، فيأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه فلا يبقي [شيئا] من البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو نفسه ؟» لقال : « هذا محال وهو من الخرافات ! » وهذه حالة النار ، ينكرها من لم ير النار اذا سمعها . واكثر [إنكار] عجائب الآخرة هو من هذا القبيل . فنقول للطبيعي . « قد اضطررت الى ان تقول : في الافيون خاصية في التبريد ، ليست على قياس المعقول بالطبيعة . فلم لا يجوز ان يكون في الاوضاع الشرعية من الخواص ، في مداواة القلوب وتصفيتها ، ما لا يدرك بالحكمة العقلية ، بل لا يبصر ذلك الا بعين النبوة ؟ » قد اعترفوا بخواص هي اعجب من هذا فيما اوردوه في كتبهم ، وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق ، بهذا الشكل :

يكتب على خرقتين لم يصبها ماء ، وتنظر اليها الحامل بعينها . وتضعها تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال الى الخروج . وقد اقروا بإمكان ذلك واوردوه في « عجائب الخواص » (٢) وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوم

---

(١) في (د، ع) المتصرفون .

(٢) لم نعثر في فهارس الكتب المعروفة على ذكر لهذا الكتاب .

مخصوصة ، يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر ؛ قرأته في طول الشكل او في مرضه او على التأريب (١) .

ب	ط	د	٢	٩	٤
ز	ه	ج	٧	٥	٣
و	ا	ح	٧	١	٨

فيا ليت شعري ! من يصدق بذلك ثم لا يتسع عقله للتصديق ، بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث ، هو لخواص غير معلومة بنظر الحكمة وسببها اختلاف هذه الاوقات . وانما تدرك هذه الخواص بنور النبوة . والعجب انا لو غيرنا العبارة الى عبارة المنجمين لعقلوا اختلاف هذه الاوقات ، فنقول : « اليس يختلف الحكم في الطالع ، بأن تكون الشمس في وسط السماء ، او في الطالع او في الغارب ، حتى ينوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج (٢) وتفاوت الاعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين

---

(١) لم نعثر حتى في امهات معاجم اللغة على شرح لهذه اللفظة مناسب للسياق. والظاهر ان الغزالي يقصد بالتأريب قراءة ما في المربع من الزاوية اليمنى العليا الى الزاوية اليسرى السفلى ، او على العكس .

(٢) في (د، ع) : الهيلاج .

كون الشمس في الفارب ، فهل لتصديق ذلك سبب » (١) الا ان ذلك يسمعه بعبارة منجم ، لعله جرب كذبه مائة مرة . ولا يزال يعاد تصديقه ، حتى لو قال المنجم [له] : « إذا كانت الشمس في وسط السماء » ونظر إليها الكوكب الفلاني ، والطالع هو البرج الفلاني ؛ فليست ثوباً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب ! » فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت ، وربما يقاسي فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم وقد عرف (٢) كذبه مرات !

فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر الى الاعتراف بأنها خواص — معرفتها معجزة لبعض الانبياء — فكيف ينكر مثل ذلك ، فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات، لم يعرف قط بالكذب ! (ولم لا يتسع لأمكانه) (٣) .

فان انكر فلسفي (٤) امكان هذه الخواص في اعداد الركعات ، ورمي الجمار وعدد اركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الادوية والنجوم فرقاً اصلا . فإن قال : « قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فانقدح في نفسي تصديقه وسقط من قلبي استبعاده ونفرته ؛ وهذا لم اجربه به ، فيما اعلم وجوده وتحقيقه لم»

....

(١) في (ط، ع) : فهل لتصديقه سبيل .

(٢) في (د) : قد جرب .

(٣) سقط من (ط، ع).

(٤) في (ع) : واذا نظر في .

وان اقررت بإمكانه ، فأقول : « انك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت اخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع اقوال الأنبياء فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك . »

على اني اقول . « وان لم تجربه ، فيقضي عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً . فإنا لو فرضنا رجلا بلغ وعقل ولم يجرب (المرض) ، فمرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء ، فقال : « هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك . » فماذا يقتضيه عقله ، وان كان الدواء مراً كريه المذاق ؛ أن يتناول او يكذب ويقول : « أنا (لا) اعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء ، ولم اجربه ! » فلا شك انك تستحمقه إن فعل ذلك ! وكذلك يستحمقك اهل البصائر في توقفك ! فإن قلت : « فيم اعرف شفقة النبي (ص) ومعرفته بهذا الطب ؟ » فأقول : وبم عرفت [شفقة أبيك] وليس ذلك أمراً محسوساً ؟ بل عرفتها بقرائن احواله وشواهد أعماله في مصادره وموارده علماً ضرورياً لا تتمارى فيه . »

ومن نظر في اقوال الرسول (ص) ، وما ورد من الاخبار في اهتمامه بارشاد الخلق ، وتلطفه في جر (١) الناس بانواع الرفق واللين واللطف ، الى تحسين الاخلاق وإصلاح

....

(١) في (ع) : في حق ، وفي (د) : سوق .

ذات البين ، وبالجملة الى ما يصلح به [1] دينهم ودنيـــاهم ، حصل له علم ضروري ، بان شفقته (ص) على امته اعظم من شفقة الوالد على ولده .

وإذا نظر إلى عجائب (٢) ما ظهر عليه من الافعـــال ، وإلى عجائب الغيب الذي اخبر عنه في القرآن على لسانـــه وفي الاخبار ، والى ما ذكره في آخر الزمان ،فظهر ذلك كما ذكره ، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل ، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص ، والامور التي لا يدركها العقل .

فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي(ص) . فجرب وتأمل القرآن وطالع الاخبار ، تعف ذلك بالعيان .

وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة اليه في هذا الزمان .

واما السبب الرابع — وهو ضعف الايمان بسبب سوء سيرة العلماء — فيداوى هذا المرض بثلاثة امور :

احدها : ان نقول : « ان العالم الذي تزعم انه يأكل الحرام ومعرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر [ولحم الخنزير] والربا ، بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة ، وانت تعرف ذلك وتفعله ، لا لعدم ايمانك بأنه معصية ، بـــل

---

(١) في (ط، ع) : الى ما لا يصلح الا به ·
(٢) في (د) : اعاجيب ·

لشهوتك الغالبة عليك ؛ فشهوته كشهوتك ، وقـــد غلبته كما غلبتك ، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين .

« وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وان زجره الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على انه غير ضار » او على ان الايمان بالطب غير صحيح ، فهذا محمل هفوات العلماء » .

الثاني : ان يقال للعامي : « ينبغي ان تعتقد ان العـالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة ، ويظن ان علمه ينجيه ، ويكون شفيعاً له حتى يتساهل معه في أعماله ،لفضيلة علمه . وان جاز ان يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز ان يكون زيادة درجة له ، وهو ممكن . فهو ، وان ترك العمل ، يدلي بالعلم . واما انت ايها العامي ! اذا نظرت اليه وتركت العمل وانت عن العلم عاطل ، فتهلك بسوء عملك ولا شفيـع لك! »

الثالث : وهو الحقيقة ، أن العالم الحقيقي لا يقارن معصية الا على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصراً على المعاصي أصلا . اذ العلم الحقيقي ما يعرف ان المعصية سم مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا . ومن عرف ذلك ، لا يبيع الخير بمـــا هو أدنى [منه] .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس . فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم الا جرأة على معصية الله

تعالى . وأما العلم الحقيقي ، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً [ورجاء] ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي الا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات وذلك لا يدل على ضعف الايمان . فالمؤمن مفتن تواب ، وهو بعيد عن الاصرار والاكباب .

●

هذا ما اردت ان اذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتها وآفات من انكر عليها ، لا بطريقة .

●

نسال الله العظيم ان يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وارشده الى الحق وهداه ، وألهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد الا اياه .

فهرست الكتاب

•

المقـدمة

آثار الغزالي

المنقذ من الضلال

النصوص الفلسفية التي نشرها

الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عواد

١ – **ابن خلدون** (منتخبات مع مقدمة عن حياة ابن خلدون وفلسفته) مطبعة ابن زيدون دمشق ١٩٣٤ .

٢ – **المنقذ من الضلال للغزالي** ، الطبعة الخامسة ، مطبعة الجامعه السورية ، دمشق ١٩٥٦ .

٣ – **حي بن يقظان لابن طفيل** ، من منشورات مكتب النشر العربي ، مطبعة ابن زيدون دمشق ، الطبعة الاولى ١٩٣٥ .

النصوص الفلسفية التي نشرها

الدكتور جميل صليبا

١ ـ **ابن سينا** (منتخبات مع مقدمة عن حياة ابن سيناوفلسفته) من منشورات مكتب النشر العربي ، مطبعة ابن زيدون ، دمشق الطبعة الاولى ١٩٣٧ .

٢ ـ **الرسالة الجامعة** من مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، الجزء الثاني ١٩٥١ .

٣ ـ **كتاب الحيدة** ، لعبد العزيز الكناني ، من مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٦٤ .